الباب الأول

الفصل الثالث

الفكر الأيديولوجى الروسى فى العهدين القيصرى والشيوعى الأيديولوجية القيصرية والأطماع الإقليمية

المبحث الأول : الأبعاد الأيدولوجية للفكر القيصرى على مسلمى وسط آسيا .

المبحث الثانى : استيلاء روسيا القيصرية على بلدان وسط آسيا .

المحتلة تقوم على القهر وترك تلك القوميات فى ظلمات الجهل والتخلف والمرض، مع عدم أحقيتها فى المعارضة السياسة أو الاجتماعية لما يحدث لمواطنيها.

وكان من بين الثقافات الغريبة التى فرضت على القوميات، والشعوب المسلمة هى ذلك المخطط الذى يهدف إلى انحلال الأخلاق، والبعد عن الافكار والمواقف التاريخية، والدينية لمواطنى تلك القوميات، فقد انتشرت فى فترة الحكم القيصرى بما يعرف بلغة الثقافة «بالمخدرات الأدبية»، وذلك من خلال أعمال أدبية ذات تقنية عالية سواء بالروايات أو الأفلام أو المسرحيات التى تخاطب طبقة العمال البسطاء، والتى كانت تشكل السواد الأعظم من تلك الشعوب، فكان معظم الأدباء الذين قاموا بتأليف تلك الأعمال يقدمون تلك المخدرات الأدبية ذات التأثير على نفوس الجماهير، لتخليصهم من سائر الضغوط النفسية مستخدمين فى ذلك المفزعات الدرامية أو المآسى الجنسية والعاطفية، التى تجذب إليها الكثير، والكثير من المواطنين البسطاء، وكان من أبرز هؤلاء الكتاب:

سيرجى مالاكثير - سيرجى لو وابسييف - اتيون فيسولى وغيرهم(١).

وبذلك يتبين أن الهدف من وراء هذه الأعمال هو جعل مجتمع المسلمين فى وسط آسيا فى ظلام فكرى، وتخلف عن المدنية، وبعيدا عن إحياء أى نزعات قومية وغيرها.

وكانت نتيجة هذه المواقف، ولتدخل السلطة الروسية فى الحياة الفكرية، والثقافية، والعلمية لمسلمى وسط آسيا، ومحاولة تغيير المناهج الدراسية، وخاصة الدينية بما يتلاءم وطبيعة المخطط الروسى القيصرى، إذ تم الاصطدام بصفة دائمة بين السلطات الروسية، وبين أصحاب الفكر والرأى من اهل تلك البلدان فى تركستان الغالية.

ومما لاشك فيه أن الشعب التركستانى قد تمسك بكل مبادئه وقيمه، وكانت هى الدافع إلى إبداء الرأى والمعارضة والتى وصلت إلى حد المقاومة والجهاد، والتى دامت أكثر من نصف قرن هذا الاحتلال القيصرى.

وكانت وجهة النظر لرجال المقاومة والفكر التركستانى، أن أهل البلاد جميعا مسلمون، وعلى مذهب الإمام أبى حنيفة، ولا يجوز أن يحتلهم أو يحكمهم هؤلاء

---

(١) يانكو لافرين - تعريف بالرواية الروسية - ترجمة مجد الدين حفنى ناصف - القاهرة - دار النهضة العربية سنة ١٩٦٢، ص٢٤٣

معين من الزراعات مثل القطن أو القمح أو غيره، ويكون الاحتكار من الدولة دون آدنى استفادة للمواطن، وبالإضافة إلى العمل على هدم أى تكتل اقتصادى يخدم المصلحة المحلية للإقليم التى تم السيطرة عليه، وكانت تقوم بتغذية الصراعات الطبقية بين أصحاب المجال الواحد، والذى ينتهى فى نهاية المطاف إلى هدم الاقتصاد القومى للبلد المسيطر عليه(١).

كما أن النظام القيصرى قد وضع من ضمن خططه تصفية الطبقة العليا الوطنية، والفئة المختارة من رجال الفكر، وذلك حتى لا يكون للوطنية قيادة تقودهم إلى رغباتهم الوطنية، ويؤدى ذلك إلى عدم وجود لسان يعبر عن آراء وأفكار الوطنيين.

وقد ظهر ذلك كثير فى حين قام النظام القيصرى بالقضاء على رجال الفكر وأصحاب المواقف الوطنية، وقد أدى النظام القيصرى لتلك السياسة إلى إضعاف الروح القومية لدى الشعوب، التى تم السيطرة عليها، فقد كان النظام الحاكم يفرض منع أى تقارب أو اتحاد ثقافى أو سياسى بين القبائل، والقوميات بعضها البعض.

وكان الهدف الواضح والثابت من هذا الإجراء، هو تفريق وتشرذم القبائل المختلفة وقطع أواصر الصلة بين القوميات التى تنتمى إلى بعضها البعض، حتى لا يكون هذا التقارب ضد المصالح الروسية.

كما أن النظام الروسى القيصرى فرض أيديولوجيات، وعقائد غريبة على أهل تلك البلاد، وثقافاتهم بل وتحمل أفكارا بعيدة كل البعد عن سلوكياتهم، وثقافاتهم المختلفة كما تم فرض لغة غريبة على اهل تلك القوميات، وهى اللغة الروسية وأصبح التعامل بهذه اللغة هو السبيل الوحيد للتعايش حتى أضعف اللغات المحلية التى أصبحت لا تستخدم إلا داخل الأسرة أو فى المناسبات العائلية(٢).

وكان الهدف من كل هذه الإجراءات، والتصرفات هو منع المحاولات المحلية لإحياء التقاليد القومية، والثوابت التاريخية، والثقافة الضرورية لإيقاظ الوعى القومى لدى العديد من القبائل أو القوميات المختلفة التى عرفت بنظرية الاضطهاد القومى فأصبحت القومية فى بعض الأحياء نكبة على أهلها.

وبذلك كانت السياسة الفكرية والإيديولوجية للنظام القيصرى فى المناطق

---

(١) ويلتر كولارز - شعوب الشرق الأقصى السوفيتى - ترجمة أ.ع البعلبكى - بيروت - دار الثقافة سنة ١٩٥٤، ص١٢٠

(٢) المرجع السابق، ص١٢٥

خاص فى نفوس المواطنين خاصة وأن التشكيلات الإدارية التى فرضتها السلطات القيصرية فى البلاد لإحكام إدارتها لم تتضمن إنشاء أى إدارة دينية يمكن الرجوع إليها[١].

وكان من بين مبادئ الفكر الأيدويولوجى القيصرى ضد الشعوب التركستانية أنه كان يغذى الخلافات والنزعات القومية الفكرية، والعقدية بين علماء تركستان أنفسهم، حتى أن خلافاتهم كانت تبعدهم غالبا عن الصواب وعمًا يخدم الدين والبلاد، وبالطبع أن مثل هذه الأمور والاختلافات بين العلماء، وبعضهم قد أدى إلى متاعب للشعب التركستانى، وكان المستفيد الوحيد من مثل هذه الأمور هو النظام الروسى القيصرى وحده، إذ كان يثبت أقدامه فى البلاد بإحكام كلما زادت الخلافات بين أصحاب الرأى والفكر لآهل البلد، وكان المحتل القيصرى يحكم سيطرته على الأراضى الواسعة وينهب الخيرات الوفيرة من تلك البلاد.

ولذا كان من مصلحة الحكام الروس أن يتركوا الشعب التركستانى على ما هو عليه من جهل وتخلف عن ركب العلم والحضارة، بل إن القياصرة كانوا يعملوا جاهدين على منع أبناء التركستانيين المتحضرين، من الالتحاق بالمدارس الخاصة والحديثة، والتى بدأت تنشأ فى طشقند - سمرقند - بخارى لخدمة الرعايا الروس وأبنائهم فقط.

ومن الواضح أن التركستانيين قد أدركوا خطأ فكرهم وقصر نظرهم فى عدم تطويرهم لمناهج مدارسهم، ولكن بعد فوات الأوان، أى بعد أن استطاع الروس القياصرة الاستيلاء على كل بلاد التركستان، ولم يعد يعبأ هذا المحتل بمصالح أو رغبات الشعب التركستانى، مما دفع العلماء وأصحاب الرأى والفكر لاتخاذ الجهاد سبيلا للتخلص من هذا المستعمر الغاصب، وتحرير البلاد من سيطرته[٢].

وفى ذات الوقت كانت روسيا القيصرية تسير بخطى سريعة، وثابتة نحو الاستفادة من الحضارة الأوربية، ومن أسباب التقدم العلمى، والتكنولوجى بها لتلحق بركب الحضارة العالمية، وذلك بعد أن أقر هذا المفهوم قيصر روسيا بطرس الأكبر حين قال:

«إنه شخصيا والبلد الذى يحكم قد تخلفا عن ركب الحضارة فى البلاد المتقدمة

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٩

(٢) المرجع السابق، ص١٧٥

الروس الكفار، وبذلك ظلت عملية مقاومة الاحتلال القيصرى أمدا طويلا، وكانت العقيدة الإيمانية لدى مسلمى تركستان قوية إلى درجة أن الاحتلال القيصرى لم يستطع بكل ما أوتى من قوة أو فكر أو تخطيط أن ينزع هذه العقيدة الإيمانية من قلوب المسلمين التركستانيين، بل إن كل حركة ضد الإسلام كانت تتسبب دون شك إلى خلق حركة مقاومة مضادة يقوم بها شعب تركستان المسلم ضد الروس.

فكان نتيجة لذلك أن ترك الروس القيصريون شعب تركستان، فى فترة السيطرة الأولى بدون تدخل أو تعديل فى المدارس أو المناهج، وتركوها على نظامها القديم دون إدخال أى تعديل للمناهج العلمية المتطورة عالميا(١).

ورغم وجود عدد كبير من أهل الفكر والعلم فى تركستان إلا أنهم رفضوا أى تعديل فى نظام التعليم، والمناهج الدراسية من باب التعصب باعتبار أن الروس القيصريين هم مستعمرون وأعداء للبلاد، ولا يجوز أن نأخذ منهم أو نتعلم ما يتعلمون، وهكذا ظلت المدارس والمعاهد الدينية فى تركستان مغلقة على نفسها بلا تطوير ولا تحديث للمنهج أو الأسلوب، فبقيت تلك المدارس متخلفة عن ركب التطور ولا تتمشى مع التطور التقنى والعلمى والتكنولوجى، الذى حدث فى العالم الغربى فى هذا الوقت.

هذا وفى الوقت الذى أخذت فيه البلاد الإسلامية من عرب وعجم تطور مناهجها وترسل البعثات لأوروبا لتحصيل العلم الحديث والفن لخدمة الوطن والدين فإن علماء تركستان لشدة عدائهم للروس القيصريين لم يقبلوا التعديل أو التبديل فى المناهج الدراسية بل ظلت تقتصر على العلوم الدينية فقط.

ونتج عن ذلك زيادة التعصب للدين الإسلامى، فقد أصم الناس آذانهم عن سماع أى تطور أو تطوير يأتى به الروس المحتلون، وعليه فقد تمسك كل مسلم بإسلامه، باعتبار أن التمسك بالإسلام فى مواجهة العدو المغتصب هو سبيل الخلاص من هذا الاحتلال القيصرى البغيض، خاصة وأن هؤلاء الروس عاشوا فى تلك البلاد وفتحوا المدارس الخاصة بهم والمتطورة فى مناهجها وبذلك انحصر المد الحضارى الإسلامى فى تلك المناطق.

وكان نفوذ علماء ورجال الدين ذا تأثير قوى فى المدن والقرى التركستانية، وذلك لعدم وجود إدارة دينية موحدة لتلك البلاد يمكن الرجوع إليها فى طلب إيضاح أى أمر من أمور الدين، ولذا أصبح للمشايخ ورجال الدين منزلة ووضع

---

(١) نصر الله الطرازى - تركستان ماضيها وحاضرها - مرجع سابق، ص١٦٨

خضوعهم لخان القرم ودفعهم للجزية لمدة تزيد على القرنين والنصف من الزمان، بالإضافة إلى العديد من الأفكار التى مارستها السلطات القيصرية فى ترك السكان فى تخلف وجهل إضافة إلى عدم تمكينهم من توحيد صفوفهم تحت راية واحدة.

هذا بالإضافة إلى بث ثقافات جديدة تقوم بهدم قيم وتقاليد هذه الشعوب، خاصة الشباب منهم والذى تجرفه أمور المدنية والإثارة، ولذا فقد استخدم النظام القيصرى كل الأساليب التى يستطيع من خلالها تفكك عرى الصلات الروحية، والإقليمية القومية والقبلية حتى لا يظهر بين تلك الشعوب أى نوع أو شكل من أشكال الاتحادات أو التضامن، بل كان من السياسات الناجحة التى استغلها قياصرة روسيا هو تغذية أى نزاعات طائفية أو مذهبية أو إقليمية بين الشعوب الإسلامية، وليس أدل على ذلك من قيام روسيا القيصرية بعمل تحالف دفاعى مع فارس ضد الدولة العثمانية، وذلك بحسبان أن الدولة العثمانية تحكم بلاد التركستان ولائيا، وهى تعتنق المذهب السنى الذى يناصب العداء للمذهب الشيعى فى فارس، ومن ثم كان طبيعيا أن تسارع روسيا بتغذية هذا الجو العدائى، وعمل تحالفات مع فارس ضد الدولة العثمانية وكان نتيجة هذا الضغط أنه فى عام ١٧٢٤م وقع الطرفان الروسى، والعثمانى معاهدة مفادها اعتراف الباب العالى بموجبها بضم الأراضى المتاخمة لبحر الخزر إلى روسيا القيصرية، وكذا التعهد العثمانى بالتخلى عن أطماعها فى أرض فارس(١).

وعلى شاكلة هذا الأمر صار الفكر القيصرى ضد بلدان تركستان، وشعبها المسلم ينفذ كل مخططاته، وأفكاره التى كانت ذات أبعاد أيديولوجية تخدم مصالحه ضد مصالح شعوب تركستان، الذين لم يحددوا آمالهم إلا من خلال المقاومة والجهاد، والذى أصبح هو السبيل الوحيد أمامهم، بعد أن رأوا أن قيصر روسيا إيفان يستمد سلطانه من البابا فى روما، بالإضافة إلى الدعم الأوروبى لمشروعاته، وأفكاره التى بدأ تنفيذها ضد المسلمين وأراضيهم، وهو ما يتمشى مع سياسة البابا الذياستجاب له ومنحه لقبا دينيا واعتبر البابا قيصر روسيا هو الوريث الشرعى للبيزنطيين، لاتحادهم مع الكنيسة الأرثوذكسية، وكان ذلك بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد السلطان محمد الفاتح، ومن ثم دخل العثمانيون فى صراع مرير مع الروس الذين استطاعوا ابتلاع ما تبقى من أراضى القبيلة الذهبية، وامتلاكها واحتلوا قازان تلك القبيلة التى كانوا يدفعون لها

(١) بوغانوف - مرجع سابق، ص٣٩٥

كثيرا لأسباب تاريخية، ومهمة وهى خضوع روسيا القيصرية، والسلاف بوجه عام تحت الحكم المغولى والقبيلة الذهبية (التون أوردا) لمدة حوالى قرنين ونصف القرن من الزمان وكان احتلال روسيا القيصرية لبلدان تركستان بمثابة رد الفعل الانتقامى، واسترداد للكرامة من الشعب التركستانى الذى حكمهم قرون من الزمان»[١].

وكان من ضمن مبادئ الفكر الايديولوجى القيصرى هو نشر الديانة المسيحية والتبشير بها فى تلك المناطق، باعتبار أن حكام روسيا إيفان، وبطرس الأكبر، وغيرهما كانوا يمثلون الاتجاه الدينى المسيحى الرسمى، وليس أدل على ذلك من قيام الحلف المقدس المناهض لمقر الحكم الإسلامى فى الآستانة، وكان هذا الحلف قد تشكل فى ثمانينيات القرن السابع عشر، وكان يباركه الأرثوذكس اليونانيون الذين اضطهدوا العثمانيين، فكانوا ينادون دوما بمقاومة، ومكافحة الآستانة، وقد كتب بطريرك أورشليم دوسيفيوس يلوم موسكو قائلا: «التتر[٢] زمرة تتباهى باستلام الجزية منكم».

ولما كان التتر من الرعايا العثمانيين فأنتم أيضا، والحالة هذه تكونوا من الرعايا العثمانيين[٣].

مما دعا قيصر روسيا لشن حملات على القلاع العثمانية فى آسيا الوسطى والقرم من عام ١٦٩٤ - ١٦٩٥ على قلعة أزوف العثمانية والتى تعد هى منفذ المرور من الدون إلى بحر أزوف والبحر الأسود وهذه القلعة كانت تعرف باسم قلعة «سعد الإسلام» ثم توالت الحملات والمعارك الروسية على تلك البلاد حتى صار لهم ما أرادوا[٤].

والثابت من حصاد ما تقدم أنه كان للفكر القيصرى أبعاد أيديولوجية من احتلاله لبلاد التركستان فكان هناك البعد الدينى المعادى للإسلام، والذى يتم لمصلحة أهل الصليب، وأصحاب الحملات الصليبية، وكذلك الأبعاد الأساسية للسياسة القيصرية ضد المسلمين، كرد فعل واسترداد للكرامة الروسية نتيجة

---

(١) بوغانوف - حياة بطرس الأكبر - موسكو - دار التقدم سنة ١٩٩٠، ص٧٧

(٢) التتر / التتار لفظ كان يطلقه الروس والأوربيون على كل الشعوب التركية والتى تسكن منطقة وسط آسيا الإسلامية.

(٣) المرجع السابق، ص٥٣

(٤) المرجع السابق، ص٥٨

ومن ثم يمكن القول إنه إذا كانت النتائج، وهى محصلة للمقدمات طبقا لأحكام علم المنطق، فإن المقدمات التى تم سردها تبين أن الفكر الأيديولوجى الروسى كان واضحا تماما فى خلق الجو المناسب للإجهاد على الشعوب، والممالك الإسلامية بوسط آسيا فأخذت السياسة الروسية تسير فى اتجاهين:

اتجاه داخلى: وهو تنظيم صفوف الجيش: وتدبير الاحتياجات، وعمل الاستعدادات اللازمة لتنفيذ المخطط القيصرى فى الوقت المناسب.

الاتجاه الخارجى: ويتمثل فى التعاون، والتحالف مع الدول الأوربية، ضد الدولة العثمانية، وتغذية النزاعات، والصراعات بين الدول، والممالك الإسلامية بعضها البعض، لتكون هناك ذريعة لطلب المساعدة من روسيا، وبالتالى وجود المبرر الخارجى للتدخل والسيطرة على البلدان والممالك المتنازعة.

وبالفعل فقد كان لروسيا القيصرية ما أرادت، فى دول آسيا الوسطى، وفى ظل غياب إعلامى، وخلال فترة الصراع بين الدول الاستعمارية، والدولة العثمانية التى كانت تحكم كل البلاد الإسلامية فعليا أو حتى ولائيا فأصبحت تلك البلاد لا تجد من تستنجد به، إذ كانت هذه الفترة هى فترة التفكك، والتباعد التى تعيشها الأمة الإسلامية من مشرقها لمغربها، فكانت لا تملك من أمر نفسها شيئا، وبالتالى لا تملك لغيرها شيئا، فاستغل المستعمر الروسى كل هذه الظروف وابتلع بلدانا، وممالك، وخانات وسط آسيا الإسلامية الواحدة تلو الأخرى.

الجزية، وبدأت جيوش روسيا تتجه إلى وسط آسيا، والدول المجاورة لها لتحقيق السيطرة الكاملة عليها، ثم سارت جيوشهم إلى شمال القفقاس، وغربى القوقاز لإخضاع الممالك الإسلامية التى كانت تحاول الأخذ بأسباب القوة لمحاربة روسيا القيصرية(١).

وكانت سياسة القياصرة تستهدف طرد المسلمين أو تنصيرهم، وقد تم ذلك بالفعل مع كثير من أهل المسلمين فى حوض الفولجا، ومع الكثير من أهل بشكير ستان، واضطر الكثير منهم إلى التنصير، وترك ديانتهم الإسلامية هربا من الإبادة التى كان يقودها إيفان الرهيب قيصر روسيا فى ذلك الوقت. إلا أن مجموعة كبيرة منهم ظلت محافظة على إسلامها زمنا طويلا فى الخفاء ؛ وأمام كل هذه الضغوط اضطر الشعب التركستانى للمقاومة، والجهاد من خلال أولا: الشعراء الذين يبثون روح اليقظة، والمقاومة، وشرعية الجهاد، وثانيا من خلال المقاومة المسلحة(٢).

فكان للشعراء مساهمة جادة فى التوعية وإيقاظ الوعى القومى، ومنهم شعراء: خوقند، وسمرقند، وبخارى، وفى النصف الثانى من القرن العشرين ظهر العديد من الشعراء الذين أخذوا ينشدو أشعارا اجتماعية، وغنائية ودينية فى مناسبات عدة تدعو الشعب للمقاومة والاتحاد ضد الحكم القيصرى، وكان هؤلاء الشعراء فى نظر الحكم القيصرى أكثر خطرا من المقاومة المسلحة، وذلك لأن الشعر بألوانه المختلفة من نثر أو منظوم أو مغنى أو غير ذلك يحافظ على الهوية والقيم والذات والتراث ويرفع من الروح المعنوية للشعب، وينبه إلى شرعية وضرورة المقاومة والجهاد، باعتبارهم يعبرون عن إرادة الشعب فى الحفاظ على هويته وقوميته ويشكلون فى نظر القياصرة القوة الخفية التى تبث روح الكفاح الوطنى والنضالى للشعب التركستانى.

وكان الروس القياصرة يرون ضرورة توحيد الدول المسيحية لمقاومة الباب العالى فى الآستانة باعتباره ممثلا لكل الممثلين(٣).

ومنذ ذلك الوقت وبدأ المخطط القيصرى يضع خططه ونواياه ضد الإسلام والمسلمين من خلال بنود مكتوبة لوضع ترتيبات الحرب ضد الإسلام وكان أهمها وصايا قيصر روسيا بطرس الأكبر.

---

(١) احمد رائف - مستقبل الإسلام فى روسيا وما وراء النهر - القاهرة - الزهراء للإعلام العربى سنة ١٩٩٤، ص١٩٧

(٢) المرجع السابق، ص١٩٨

(٣) بوغانوف - مرجع سابق، ص٣٦٨

وما كان للروس ولا لغيرهم أن تطأ أقدامهم تلك الأراضى، والبقاع الإسلامية الطاهرة لو لم يكن مسلمو «القازان» و «القرم»، قد دبت بينهم عوامل الشقاق، والخلاف، والصراع، وانعدمت بينهم عوامل الألفة، والوفاق فتقطعت بينهم الأسباب، ولذلك وجد الروس الفرصة سانحة للاستيلاء على بلاد المسلمين، ولم تكن التركستان الإسلامية أحسن حظا من تلك الخانيات الثلاث، التى قامت على أنقاض القبيلة الذهبية، والمعروفة بإمبراطورية (التون أوردا) (١).

وكان التركستان يحكمها الخاقان الأعظم (شاه روخ) الذى كان محبا للأدب والثقافة، وانتشرت فى عصره طبع الكتب ونسخها وتهذيبها، ولكن قد دب فيها الضعف بعد وفاة خاقانها الأعظم.

وحين بدأت روسيا فى دك الحصون، والقلاع فى الشمال الغربى لتركستان، وكانت المعركة على أشدها، حيث كانت تلك الدول الإسلامية مقسمة إلى سبع دويلات صغيرة هى(٢):

١- الدولة الأوزبكية فيما وراء النهر.

٢- دولة بنى ياوكار بخوارزم (خيوة).

٣- دولة بنى بلاقوندى فى الشمال الغربى وتسمى هذه الدولة خانات سيبيريا.

٤- دولة خانات مانغيت فى غربى ولاية قازاغستان.

٥- دولة سلاطين (قازان) فى الشمال الشرقى لقازاغستان.

٦- دولة بنى جغتاى فى تركستان الشرقية، وولاية صو (وهى تحت حكم الصين الآن).

٧- دولة بنى بابور شاه فى جنوب تركستان، والهند.

وهذا التفتت، والتشرذم قد أغرى الروس على تشديد الهجمات الشرسة، والبربرية على ديار المسلمين حتى كان لهم ما أرادوا(٣).

ونجد أن الروس قد استخدموا بعض الذكاء الحربى للاستيلاء على البقاع الإسلامية فبدأوا فى أول الأمر بدولة بنى بلاقوندى التى تسكن بلاد سيبيريا فى

---

(١) المرجع السابق، ص١٨

(٢) المرجع السابق، ص١٩

(٣) أحمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق ص١٦

المبحث الثانى

استيلاء روسيا القيصرية على بلدان وسط آسيا

من الواضح أن منطقة وسط آسيا الإسلامية كانت تدور فى فلك حكامها قوة وضعفا، ومن ثم لم توجد ثمة سياسة واضحة وثابتة لتلك البلدان.

ومن دلالات هذا الوضع الخطير أنه بعد وفاة الإمبراطور «بركة خان» حاكم القبيلة الذهبية، ازدادت المعاناة لمسلمى آسيا الوسطى، لاصطدامهم بالأطماع الروسية، إذ بدأ الروس فى التغلغل إلى قلب الإمبراطورية، التى انقسمت إلى ثلاث دويلات صغيرة هى:

خانية القرم - خانية القازان - خانية اصطرخان

وتم ذلك ابتداء من عام (١٤٢٨م)، وقد أصاب هذه الخيانات، ما يصيب عادة الأمم عندما تتسع ثرواتها، وينصرف حكامها لحياة الترف، والنعيم ويتركون ما كانوا عليه من جهاد وكفاح، ونشر للدعوة الإسلامية، وبالطبع نتج عن ذلك انحلال، وانهيار تلك الخانيات، وقد ساعدت حالة التدهور، والضعف التى تعيشها تلك الخانيات إلى دفع حاكم موسكو إيفان الرهيب لقطع الجزية التى كان يدفعها للقبيلة الذهبية، ممثلة فى خانية قازان، ثم ما لبث أن تقدم إلى مدينة قازان على رأس جيش كبير مكون من مائتى ألف جندى، وتم استيلاؤه عليها فى ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٥٥٢م[١].

وبذلك استرد الروس كرامتهم، باعتبارهم أصبحوا الحاكمين المسيطرين على خانية قازان التى كان للأمس القريب محكومين لها، وخاضعين لحكامها، وبهذا النصر الروسى يكون قد فتح أمامهم الطريق إلى سيبيريا وبحر الخزر.

وقد فتحت شهيتهم على باقى أراضى الخانيات المسلمة، والمسالمة إذ استطاعوا بعد ذلك الاستيلاء على خانية اصطرخان التى مهدت لهم الطريق للاستيلاء على بلاد القوقاز والتركستان.

وبعد ذلك بدأ الروس فى توسيع دولتهم، وبسط سلطانهم على جميع الأراضى المحيطة بهم بوحشية، وبربرية شهد بقسوتها التاريخ.

---

(١) دار الدعوة - قسم البحوث والدراسات - تركستان بين الدب الروسى والتنين الصينى - الإسكندرية - دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع سنة ١٩٩٣، ص٢٦

حيوانات لا حياء عندهم ولا تمييز، ولذا كان الغدر، والتوحش، والهمجية، واستباحة المال والعرض فهذه هى طباعهم، وقد حاول العهد القيصرى بكل وحشية، وهمجية أن يقضى على الدويلات الإسلامية فى ذلك الوقت بعد أن استطاع بعض القياصرة تهذيب وتنظيم صفوف هؤلاء الروس، ومحاولة تقليدهم لقرنائهم الأوروبيين، المتقدمين عنهم كثيرا ليخلق منهم أمة ذات طباع متحضرة.

وبعد عدة حملات منظمة ومتتابعة قام بها الروس الذين كانوا بالأمس خاضعين للحكام المسلمين أن يسيطروا على البلاد الإسلامية، ويستولوا عليها الواحدة تلو الأخرى وذلك لتفككهم وانصرافهم إلى حياتهم الخاصة، وإلى ملذاتهم وهكذا فقد استطاع حكام الروس تنظيم صفوفهم وترتيب حملاتهم المتتابعة ضد الإمارات والخانيات والدويلات الإسلامية فى الوقت الذى انصرف فيه الحكام المسلمون فى تلك البقاع لملذاتهم وحياتهم المترفة حتى أصابهم الضعف والهوان، مما دفع بالروس من خلال حملات قتالية ومتتابعة لاحتلال مناطق التركستان، وكذلك مناطق قازخستان الإسلامية التترية واصطرخان ونهر الفولجا وجبال أورال، ومناطق البشكير وبحر قزوين وسيبيريا الغربية وكانت كلها تحت أيدى المسلمين(١).

ومنذ أن دخل القيصر فلاديمير فى المسيحية الأرثوذكسية عام (٩٨٨م - ٣٧٨هـ)، ثم تبعه إيفان الرهيب فى القرن السادس عشر الميلادى، وشأن موسكو يتعاظم شيئا فشيئا، ومن هذا المنطلق وبمنطق القوة ظهر بعض القياصرة الجبابرة أمثال: إيفان الثالث (١٤٨٠م - ٨٨٥هـ).

وجد إيفان الرهيب ذلك القيصر الذى قاد حملة قاتل بها التتار، وأخرجهم من موسكو بعد أن دامت فى أيديهم قرابة ٢٤٠ عاماً، ثم فاسيلى الثالث، والد إيفان الرهيب، والذى توطدت العلاقة بينه وبين البابا الذى وعده برضا الرب وحكم القسطنطينية، إذا ما عجل بطرد المسلمين إلى سيبيريا، ثم يأتى الحديث هنا عن أخطر هؤلاء القياصرة وهو إيفان الرهيب، وقد أطلق المسلمون عليه لقب (الرهيب) لقسوة معاملته للمسلمين، إذ قام ضدهم بحرب إبادة وقد وضع أمامهم عدة اختيارات كل منها أصعب من الأخرى، فإما أن يتنصروا ويعتنقوا المسيحية، ويتركوا الإسلام، وإما القتل، وإما الطرد خارج بلادهم، وقد فعل ذلك مع التتار المسلمين على نهر الفولجا، ومع البشكير وقد تحول عدد كبير من التتار

(١) محمود محروس قشطة - المرجع السابق، ج٢، ص١٢٦

الشمال، وهى أماكن بعيدة عن حماية وتجمع الدول الإسلامية، ومع ذلك استعد مسلمو سيبيريا للدفاع عن بلادهم، ووقع القتال بين الفريقين قريبا من نهر (إيرتيش)، واستطاع الروس احتلال هذه البلاد بعد أن سقطت (أيسكر) عاصمة سيبيريا فى يد الروس عام ١٥٨١م، واستولى خلالها الروس على الكنوز، والمجوهرات، والأموال الطائلة والتحف، والمعادن الثمينة، والتى تمثل ثروات البلاد، وأموالها(١).

وقد قام الروس باحتلال (كوزاق اورون روغ)، وفى عام ١٧٣٥م وطأت أول قدم من جنود الروس المستعمرين ارض الجزء الشمالى من تركستان. وفى عام ١٧٧٣م انتهى الروس من احتلال (القرم) بعد صراع وحروب شرسة ولم تتوقف المعارك فى القوقاز إلا عام ١٨٦٤م حين وقع القائد الإمام شامل فى الأسر وبعدها بعام واحد ١٨٦٥م وقعت مدينة طشقند تحت الاحتلال بعد معارك ضارية ومقاومة عنيفة(٢).

العهد القيصرى:

تولى حكم روسيا عدد من القياصرة الذين ساهموا فى بناء روسيا الحديثة من أمثال هؤلاء القياصرة (إيفان الثالث) ثم (إيفان الرابع) (إيفان الرهيب) وسمى كذلك لوحشيته، وبربريته فى القتل، وسفك الدماء فى المعارك التى كان يخوضها، ضد المسلمين لإحتلال أراضيهم، وأرغامهم على قبول سياسته الاستعمارية ثم بطرس الأكبر أو بطرس العظيم، وهو الذى فتح أبواب الاتصال بين روسيا، وأوربا ثم الإمبراطورة كاترين ثم نقولا الأول فالثانى(٣).

فهؤلاء القياصرة هم من نظموا بلاد السلاف التى يحكى عنها التاريخ على لسان المؤرخين العرب من أمثال (ابن فضلان) و(ابن بطوطة) و(المسعودى) عندما وصفوا الروس بأنهم أمة همجية طبعها التوحش وشيمتهم الغدر، شُقر الأبدان، صُفر الشعور، طوال القامات، ضخام الأجسام، إذا نزلوا بساحة قوم لا ينصرفو منها حتى يهلكوهم، ويستبيحوا نساءهم، وأولادهم، ويسترقوهم وهم أقذر الأمم قاطبة، لا يستنجون من الغائط، ولا يغتسلون من جنابة، كأنهم الحمير الضالة، كما أنهم يعاقرون الخمر ليل نهار، يأتون نساءهم نهاراً جهاراً دون حياء، وكأنهم

---

(١) محمود محروس قشطة - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق - ج٢، ص١٢٥

(٢) الهام محمد ذهنى - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق - ج٢ - ص١٤٦

(٣) إلهام محمد ذهنى - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق - ج٢ - ص١٤٦

الثامن عشر بنشر الإسلام، وقام أتباع الطرق الصوفية، وخاصة النقشبندية بالدعوة لتوحيد الله فى بلاد الشاشان، والشركس، والأباظة[1].

ومع ذلك لم تكن فترة حكم الإمبراطورة كاترين فترة تسامح مطلقة، فقد تخلل فترات من المعاملة السيئة، فقد قامت فى فترة من حكمها بمصادرة المساحات الشاسعة من الأراضى الخصبة من تتار القرم، وأعطتها للمقربين لقلبها أمثال بوتمكين، ويولجاكوف وغيرهما الكثير.

ثم يأتى بعدها قياصرة لم يكونوا على درجة معاملتها للمسلمين، فنجد القيصر نيقولا الأول ١٨٦٥م / ١٢٨٢هـ لم يسير على سياستها من التسامح بل تعامل مع المسلمين بكل قوة، وقهر، ومنع بناء المساجد، وصادر الأراضى، واحتلت جيوشه طشقند وسمرقند، وغيرهما.

والجدير بالذكر هنا، أن الدولة العثمانية خلال مرحلة القوة، والازدهار، وحتى أواخر مرحلة التوقف والجمود، كان لها علاقات وطيدة بممالك وسط آسيا والقوقاز، حيث لعبت دورا مهما فى الصراع الذى دار على أملاك القبيلة الذهبية (التون أوردا) حتى فازت بالقرم، وجزء كبير من قافقاسيا، وأوقفت الزحف للروس فى هذه المنطقة لمدة قرنين من الزمن[2].

وهذا وقد استطاعت الدولة العثمانية فى هذه الأثناء تشكيل عدة مناطق، وممالك تابعة لها وكانت عونا لها فى صراعاتها شمالا مع القوة الصليبية الروسية، وغربا مع القوة الصليبية الأوروبية، ولهذا اعتبرت هذه المناطق من ثغور الدولة العثمانية فى الشمال والشرق حيث كانت أراضيها امتدادا طبيعيا، ومتصلا بأراضى الدولة العثمانية.

ولقد أقامت الدولة العثمانية معها علاقات مباشرة، فقد عقدت الحكومة العثمانية مع ممالك آسيا الوسطى الإسلامية علاقات قوية، الأمر الذى جعلها تسعى لمد خطوط المواصلات المباشرة معها عبر مشروع الدون / فولجا، ومع أن هذا المشروع لم يتم إلا أنه كان من الوسائل التى أضعفت الدولة الصفوية، واستمر هذا الصراع حتى استطاعت روسيا مد نفوذها على كل ممالك وسط آسيا الإسلامية.

---

(١) محمود محروس قشطة - مرجع سابق، ص١٢٧

(٢) المرجع السابق، ص١٢٨

والبشكير للنصرانية، مكرهين خوفا على أرواحهم وأولادهم ظاهرا، وقد حافظوا على إسلامهم سرا لمدة ثلاث ةقرون، ولكن بعد أن أتيحت لهم الحريات الدينية (سنة ١٩٠٥م / ١١٣٣هـ)[١]، جاهروا بإسلامهم الحقيقى، وتستمر سياسة إيفان على يد القيصر بطرس الملقب بالعظيم، فكانت سياسته كعهد سابقه إذ فرض التنصير على المسلمين بالقوة أو الطرد من أوطانهم. وقد بدأ هذا القيصر «بطرس العظيم» من (١٦٨٢م - ١٧٢٥م) (١٠٩٢هـ - ١١٣٨هـ) فى توسيع رقعة بلاده وأراد الوصول إلى المياه الدافئة باتجاه جنوب منطقة أوزوف، وكان بها قلعة للدولة العثمانية واحتلها (١٦٩٦م - ١١٠٨هـ)، ولكن الدولة العثمانية استعادتها منه (١٧٠٠م - ١١١٢هـ) ولم تمكن بطرس العظيم من الاستيلاء على القوقاز إلا سنة (١٧٢٢م / ١١٣٥هـ)، لمواجهته بمقاومة شديدة من أهلها المسلمين[٢].

ثم تأتى الإمبراطورة كاترين (١٧٣٨م / ١٧٥٥م - ١١٥١هـ / ١١٦٩هـ) وتسير على نهج سلفها فتفرض التنصير على مسلمى الفولجا، وتصادر الأوقاف، وتغلق المساجد، ولقد أصدرت أمراً يعفى المسلمين المرتدين للنصرانية من الضرائب، ومن الخدمة العسكرية، ومعاملتهم معاملة حسنة، لحث المسلمين على التنصير بعد أن أغلقت المدارس الدينية للمسلمين، ومعاملتهم معاملة سيئة، وخطف أبنائهم الصغار وإلحاقهم بمدارس التبشير المسيحية حتى ينشأوا على النصرانية الأرثوذكسية.

وفى عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (١٧٦٢ / ١٧٧٦م - ١١٧٦ / ١٣١١هـ) تم التوسع الكبير على حساب أراضى المسلمين، ورغم أن عهد كاترين اتسم بالتوسع على حساب أراضى المسلمين، ولكن المعاملة كانت حسنة ومتسامحة مع المسلمين، وقد سمحت للتتار بالعودة لوطنهم قازان بعد أن شردوا منه فى عهد إيفان الرهيب، ومن خلفه من القياصرة، وذلك فى عام ١٧٦٧م / ١١٨١هـ، كما منحتهم الحرية الدينية سنة ١٧٧٣م / ١١٨٧هـ، وأعطتهم حق بناء المساجد، والمدارس، وكان ذلك لأول مرة فى تاريخ روسيا القيصرية، وبفضل هذه السياسة المتسامحة لكاترين تجاه المسلمين قام التجار فى القرن

---

(١) إلهام محمد ذهنى - المرجع السابق، ص١٤٤

(٢) هـ - ج ولز - معالم تاريخ الإنسانية - ترجمة عبد العزيز جاويد - القاهرة - الهيئة العامة للكتاب جـ ٤ سنة ١٩٩٤، ص١٣٤٨

٦- كانت هزيمة روسيا فى حرب القرم قد أثبتت ضعف القوات الروسية أمام القوات البريطانية، والفرنسية الأمر الذى دفع روسيا لإعادة البناء فى كافة المجالات وخاصة المجال العسكرى.

٧- عزم الروس على نشر المذهب الأرثوذكسى باعتبار أن القياصرة هم ورثة الإمبراطورية البيزنطية، ويستلزم ذلك محاربة الخانيات الإسلامية، وزعزعة العقيدة فى نفوس أبنائها، وتأمين حدودها الجنوبية.

ثانيا العوامل الخارجية[١]:

١ - رغبة روسيا فى التوسع على حساب أملاك الدولة العثمانية بعد الاتفاق مع بريطانيا، وفرنسا بادعاء رغبة روسيا فى حماية الروم الأرثوذكس فى الأراضى المقدسة فى فلسطين، ورفض الدولة العثمانية لذلك، وتفاقم الموقف بتأييد فرنسا وبريطانيا، والنمسا، وروسيا للدولة العثمانية ضد روسيا، والذى نشب عنه حرب القرم، والتى انهزمت فيها روسيا[٢].

٢- رغبة روسيا فى استعادة هيبتها التى فقدتها بسبب هزيمتها فى حرب القرم، وتوقفت لفترة على مشاريع التوسع الروسى غربا، وتخلت روسيا عن فكرة تقسيم الدولة العثمانية، والتنشيط فى التوسع فى آسيا الوسطى.

٣- رغبة روسيا فى وضع نفسها فى مصاف الدول التى لها الكلمة فى السياسة الدولية، فلم تعد روسيا مؤثرة فى السياسة الأوربية، التى كانت تحكم العالم فى ذلك الوقت.

٤- تدخل روسيا فى حروب غير مباشرة مع الدولة العثمانية، إذ وقفت فى جانب الثوار فى البوسنة والهرسك ضد الدولة العثمانية، ثم دخلت إلى جوار الصرب والجبل الأسود ثم طالبت التدخل لحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية نفسها[٣].

٥- كانت سياسة التوسع الإنجليزى بقارة آسيا ممثلة فى الهند، وطموحاتها فى أماكن أخرى، أثرا كبيرا على سياسة الروس الذين نظروا بعين الحسد، والغيرة للقوات البريطانية فى آسيا والهند، ولم يخف المسئولون الروسيون رغبتهم فى

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٠

(٢) هـ. ج ولز - مرجع سابق، ص١٣٣٨

(٣) هـ- ج ولز - مرجع سابق، ص ١٣٤٠

العوامل المؤثرة فى التوسع الروسى فى آسيا الوسطى[١]:

إن التوسع القيصرى فى منطقة آسيا الوسطى ارتبط ارتباطا مباشرا بعدة عوامل تاريخية، وجغرافية، وموضوعية إلا أن هذه العوامل يمكن أن تقسم إلى قسمين: الأول عوامل داخلية، والثانى عوامل خارجية.

أولا العوامل الداخلية:

١ - فى المرحلة التاريخية من سنة (١٨٥٢ - ١٨٥٥م)، وهى المرحلة التى ركز نقولا الأول جهوده للسيطرة على منطقة القوقاز فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولتحقيق هذا الغرض تم بناء خط من الحصون تحيط بهذه القبائل، والقضاء على أى مقاومة لها، ولكن القائد الإسلامى (قازى ملا) قد نجح فى إعلان الجهاد الإسلامى ضد الزحف الروسى، ثم دفع القبائل هناك للوقوف معه لمدة عشرين عاما، وتمكن خلالها من الاستيلاء على بعض المدن الروسية، مثل كيزليار، وهاجم الشاشان، وقد قاومه الروس بشراسة، وتم تراجعه وقتله فى جبال داغستان، وتسلم راية الجهاد بعده (الشيخ شامل) الذى استطاع توسيع دائرة الغارات العسكرية ضد الروس حتى شمال داغستان عام ١٨٣٧م، ولكن الروس استطاعوا تكثيف العمليات العسكرية، بعد انتهاء حرب القرم عام ١٨٥٦م حتى اضطر للاستسلام فى ٢٥ أغسطس ١٨٥٩م، وكان القضاء على الشيخ شامل يعنى إحكام سيطرة الروس على تلك المناطق، ومن ثم تم التقدم نحو خانية القرم[٢].

٢- أدت حاجة روسيا إلى وجود حدود حصينة آمنة يسهل الدفاع عنها إلى توسيع الرقعة الاستراتيجية التى تشغلها خانيات وسط آسيا.

٣- رغبة روسيا فى خلق وتطوير صناعات مختلفة توجد خاماتها فى بلاد وسط آسيا مثل القطن، والعديد من المعادن.

٤- كان قرار اليابان بغلق الطريق أمام التوسع الروسى فى شرق سيبيريا قد أدى إلى اتجاه الروس لتركيز قوتهم فى آسيا الوسطى.

٥- كانت الخانيات، والإمارات الإسلامية على طريق التجارة الروسية، قد بدأت على مهاجمة القوافل التجارية، فأراد الروس توجيه ضربة لتلك الخانيات، وإقامة بعض الحصون، والقلاع لتأمين طرق تجارتها، وقد سهلت هذه القلاع والحصون بعد ذلك غزو هذه الخانيات.

---

(١) إلهام محمد على ذهنى - مرجع سابق، ص١٤٦

(٢) المرجع السابق، ص١٤٩

وهذان المحوران يتناولان وجهة النظر الاستعمارية بغض النظر عن اسم ونوع هذا الاستعمار إذ أن وجهة النظر الاستعمارية دائما ضد الفكر والوجدان الإسلامى، ولذا نجد ذلك فى كتاباتهم إذ جاء كتاب (الخطر الإسلامى على الدولة السوفيتية) لمؤلفيه: (الكسندر بيجنست)، (مارى بروكسوب) يتضمن الأبعاد الأيديولوجية للفكر القيصرى على مسلمى وسط آسيا، والرغبة فى الاستيلاء على تلك البلدان بمقولة إن روسيا تحمى أوروبا من الجهة الشرقية من الخطر الإسلامى، فهى تمثل دولة المواجهة مع المسلمين ومن ثم فلها حق المساعدة والمناصرة من دول أوربا[1]. ومن ثم كانت السياسة القيصرية تتفق تماما مع السياسة الأوربية فى محاربة الإسلام، والمسلمين بشتى الطرق، والأساليب، والتى تصل إلى حد القتل، والقهر والإفناء متناسية الحقبة الزمنية الطويلة، والتى حكم فيها المسلمون بلاد روسيا بالرحمة والمودة وسيطروا فيها على كل أنحاء روسيا، حتى أن موسكو كانت مشيخة إسلامية تسمى «مشيخة الموسكوف»، وكان حكامها مجرد ولاة يحكمون تحت السيطرة الإسلامية التى يدفعون إليها الجزية السنوية لحاكم القبيلة الذهبية.

ومن هذا المنطلق كان الفكر القيصرى يسير فى اتجاهين الأول الانتقام من مسلمى أوربا بالمواجهة العسكرية، والاحتلال، والثانى بالاتحاد مع أنصار الصليب فى أوربا ومحاولة نشر الديانة المسيحية فى البلاد، وذلك بكل الأساليب الممكنة، وقد استطاع الروس القياصرة ثم الشيوعيين من النجاح فى الاتجاه الأول وهو الاحتلال والسيطرة، أما الاتجاه الثانى وهو التنصير أو محو الهوية الإسلامية فقد فشل النظامان القيصرى، والشيوعى بكل آلياته الفكرية، والعسكرية من التأثير على الأيديولوجية العقائدية لمسلمى وسط أسيا فظلوا متحفظين، ومحافظين على هويتهم الإسلامية التى تعتبر إكسير الحياة بالنسبة لهم فكانوا، ومازالوا محافظين عليه.

---

(١) كتاب دار الدعوة .. مرجع سابق، ص٣٥

التوسع فى آسيا الوسطى، الذى بدأه الروس فى الاستيلاء على خانيات إمارات وسط آسيا والقوقاز إذ استطاع الروس القياصرة الاستيلاء على خانيات منطقة أيربيل أورال (منطقة القرم والقوقاز) كالآتى:

١- استيلاء الروس على خانية قازان سنة ١٥٥٢م، ثم استراخان سنة ١٥٥٤م،ثم خانية القرم سنة ١٥٥٥م.

ثم اتجه الروس نحو إمارات تركستان وهى بخارى وجنوه وخوقند، إذ استولى الروس القيصريون على إمارة بخارى سنة ١٨٦٨م، ثم على إمارة جنوه سنة ١٨٧٣م، ثم على إمارة خوقند سنة ١٨٧٦م.

وكان للغزو القيصرى الروسى على تركستان وإماراتها الإسلامية الأثر السيئ على نفوس المسلمين الذين غضوا النظر عن فاجعة تركستان وأهلها لانشغالهم بقضاياهم القومية إذ عاصر هذا الموقف الأطماع الاستعمارية على كافة أوطان المسلمين وكان الهدف من الاستيلاء الروسى على بلدان وسط آسيا هو تحدى الحضارة الإسلامية والقضاء عليها وإحلال الفكر الروسى محلها، ولكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير، فقد واجه الروس مصادمات عنيفة من خانات وسط آسيا الإسلامية، ولكن للأسف الشديد لم يحاول حكام هذه الخانات إقامة أى تعاون مشترك سواء للدفاع أو للحماية يخدم بعضهم بعضا بل كان كل حاكم مشغولاً بأحواله الشخصية، ولم يدرك الخطر الذى يحيط به وببلاده، ولم يفكر أى منهم فى عمل اتحاد أو معاهدات مشتركة مع أى بلدان إسلامية أخرى، يضاف إلى ذلك الظروف الدولية التى أتاحت الفرصة للقوات الروسية للتوسع والسيطرة على تلك المناطق، خاصة وأن تلك الفترة وهى تمثل النصف الثانى من القرن التاسع عشر هى فترة الزحف والتكالب الأوربى على قارتى أفريقيا وآسيا بزعم دور الرجل الأبيض فى رفع المستوى الثقافى والحضارى فى تلك البلدان، والقضاء على البربرية وهذا ما نادت به فرنسا وإنجلترا، والذى وجدته روسيا فرصة لتحذو حذوهم رغم أن الغرض الأساسى من احتلال هذه البلاد هو التوسع والسيطرة والاستعمار وضم الكثير والمزيد من الأراضى ونهب ثرواتها.

وعلى ذلك فإن هذا الفصل يتناول أطماع الروس القياصرة، واستيلائهم على بلدان وسط آسيا الإسلامية من خلال محورين:

المحور الاول: فيتحدث عن الأبعاد الأيديولوجية للفكر القيصرى.

المحور الثانى: يتناول استيلاء الروس على بلدان وسط آسيا الإسلامية.

الباب الثانى

الفصل الأول

المبحث الأول

نتائج الثورة الاجتماعية الفكرية وبداية عهد الشيوعية

لقد انهارت روسيا فى بواكير عام ١٩١٧م، وفى ذلك الوقت كانت شدة الحرب العالمية الأولى تؤثر تأثيرا مباشرا على كل الشعوب الأوربية، ولكن روسيا كانت أكثر الشعوب معاناة، ومكابدة من جراء ما أصاب المدينة من زعزعة خلفها نظام الحكم القيصرى الذى لم يتسم بالنزاهة، أو الكفاءة، وكان القيصر «نيقولا الثانى» شأنه شأن كثير من أسلافه قد استسلم لحالة تقوى جنونية، وتسلط على البلاط الحاكم دجال دينى يسمى (راسبوتين) الذى استطاع السيطرة على فكر، وعقل، وإرادة الحاكم، وكان وراء هذا الفكر غير السوى تصرفات أكثر بلادة، وبلاهة انعكست على إدارة الحرب(١).

فكان الجنود الروس العاديون يرسلون إلى ميادين القتال بدون سلاح أو بنادق أو ذخائر، وكان قوادهم يلقون بهم فى المعارك فى حالة هذيان من الحماسة العسكرية فانتشر شعور بين الجنود، والرعية بالكراهية، والاشمئزاز من القيصرية، ثم انسحبت روسيا من الحرب، وتركت حلفاءها وحدهم فى الميدان، وعقدت صلحا مع ألمانيا ثم قتل (راسبوتين) عام ١٩١٦م، وتفاقمت الأمور بسرعة شديدة، وبذلت محاولات متأخرة لإعادة تنظيم القيصرية، ولكن معنويات الشعب الروسى قد دمرت، وانعدمت ثقته فى الحكم القيصرى، وتم تشكيل حكومة برئاسة كيرنيسكى، ولكنها فشلت فى تحقيق ثقة الشعب، واستبد اليأس، وبلغ مداه فنشأت فى صفوف الجيوش الروسية حركات تمرد متعددة(٢).

وفى نوفمبر سنة ١٩١٧م، سقطت حكومة كيرنيسكى، وتملكت السلطة هيئة السوفيت التى يسيطر عليها الاشتراكيون البلاشفة برئاسة لينين، وتعهد بإبرام الصلح غير -آبه بالدول الغربية، وبذلك خرجت روسيا من الحرب(٣).

---

(١) بوغانوف - مرجع سابق، ص٨١

(٢) هـ. ج ولز - مرجع سابق، ص١٤٥٦

(٣) البلاشفة أو البلشويك: تعنى حزب الأغلبية. أما المناشفة أو المنشويك: تعنى حزب الأقلية.

الباب الثانى
لمحة تاريخية عن تشكيل وقيام الاتحاد السوفيتى

الفصل الأول
الثورة الأيدولوجية البلشفية

المبحث الأول : نتائج الثورة الاجتماعية والفكرية وبداية عهد الشيوعية.

المبحث الثانى : سيطرة روسيا الشيوعية على بلدان وسط آسيا الإسلامية والقضاء على المقاومة التركستانية.

مطالبهم إلا أن العمال الشيوعيين، وبتعليمات من قائدهم لينين قد حرضوا باقى العمال على الشغب والثورة حتى يسقط القيصر المستبد[1].

وحين رأى القيصر هذه المظاهرات العارمة أمر جنوده بضرب المتظاهرين، وفتح النار عليهم مما نتج عنه قتل وموت عدد كبير من العمال، مما أثار الشعب من جهة، والقيصر من جهة أخرى، حتى انتهت هذه الاضطرابات عام ١٩٠٧م، وسميت هذه الأحداث بالثورة الروسية الأولى.

ولكن من سوء الطالع أن هذه الشعوب المظلومة، والمقهورة كالتى استجارت بالرمضاء من النار، قد هربت بثورتها من اضطهاد العهد القيصرى إلى مذلة العهد الشيوعى دون أن تدرى.

فقد خدعها لينين وجماعته بالشعارات الرنانة، والطنانة الكاذبة، والمزيفة، واعتقل القيصر نيقولاى الثانى، وأودعه فى السجن، وتولى الحكم حكومة مؤقتة بزعامة كرنيسكى، ولكن الزعماء الشيوعيين لم يرتاحوا لكرنيسكى، وادعوا أنه من الطبقة البرجوازية، رغم أنه من أعضاء حزب المنشويك)حزب الأقلية الشيوعى)، ولم تحقق الحكومة مطالب، ومطامع الشعوب المقهورة، مما دفع بعض الشعوب ولا سيما شعب تركستان، والقرم إلى إعلان الاستقلال، وتكوين حكومة حرة وطنية، وذلك فى نوفمبر ١٩١٧م[2].

وتولى لينين الحكم بعد كرنيسكى، وبدأت مأساة المسلمين، ولم يأت عام ١٩٢٤ حتى قضى الشيوعيون على هذا الاستقلال كاملا، فاجتاحت الجيوش الروسية الشيوعية، كل البلاد، والدويلات الإسلامية فى القرم وتركستان، فقد نفى الكثير منهم إلى مجاهل سيبيريا حيث الموت المؤكد، وشرد، وقتل الكثير.

ورغم أن القرم من البلاد الغنية بإنتاجها الزراعى، والتعدين، إلا أن الروس أبادوا ونفوا شعب القرم كاملا بحلول عام ١٩٤٣م على يد ستالين[3]، لذنب لم يقترفوه وهو اتهامهم كذباً بتحالفهم مع الألمان ضد روسيا قبيل الحرب العالمية الثانية.

نتائج ثورة ١٩١٧م:

لم تكن ظروف بلاد التركستان بعد ثورة ١٩١٧م، أسعد حظا من ذى قبل سواء

---

(١) الكاييف وكارتسوف - تاريخ الاتحاد السوفيتى - موسكو - دار التقدم - سنة ١٩٨٥، ص١٠١

(٢) نصر الله الطرازى - المرجع السابق ص ١٨٠

(١) نصر الله الطرازى - المرجع السابق، ص١٨٠

وسرد هذه المقدمة يجرنا إلى الحديث بشيء من التوضيح عن خلفيات الاضطرابات، التى قام بها عمال موسكو سنة ١٩٠٥م، وكانت بداية حقيقية للثورة الروسية البلشفية.

فقد كانت الدولة الروسية فى القرن التاسع عشر الميلادى تحكم نحو ستين شعبا من شعوب روسيا الأوربية، وآسيا الوسطى والقرم والقوقاز، ولم تكن هذه الشعوب تعامل من القياصرة المعاملة الحسنة خاصة شعوب آسيا الوسطى، وتركستان، والقوقاز الإسلامية(١)، فكانت مضطهدة من الحكام القيصريين، ومن الإقطاعيين المستغلين، كما كانت السخرة، والظلم، وحرمان العمال، والفلاحين من حياة كريمة، وشريفة مع حرمانهم من خير بلادهم هى سياسة الحكومة القيصرية، وبالطبع وكما هو معلوم أن هذا التصرف من الحكومة القيصرية تجاه مسلمى وسط آسيا، والقوقاز، وأهل القرم بصفة خاصة هو الشعور الدائم للروس بأنهم كانوا من رعايا الدولة الإسلامية، وكانوا يدفعون الجزية، وكانوا محكومين، وخاضعين لسلطان المسلمين، ومن ثم فإن هذا الشعور بالنقص، والكراهية للمسلمين كان له ما يبرره فى نفوس القياصرة الذين كانوا بالأمس القريب إحدى رعايا الدولة الإسلامية ممثلة فى القبيلة الذهبية، ثم أصبحوا اليوم هم الأسياد، والحكام فكانت معاملتهم مع رعاياهم المسلمين تتسم بالقهر، والقسوة، وكانت تتعامل بذات الأسلوب مع جميع الشعوب الإسلامية التى كانت تحت سيطرتهم لخوفهم من اتحاد كل تلك الشعوب المضطهدة، ومن ثم تثور ضدهم.

لذلك فكان أسلوب القهر وتفشى الجهل، والتخلف بين هذه الشعوب هو الأسلوب المتبع من القيصر، والإقطاعيين الروس الذين تعاملوا مع طبقة العمال والفلاحين بكل قسوة، وقهر دون تمييز بين قومياتهم، وكان المجتمع الروسى مقسماً إلى طبقة القياصرة وهم يمثلون الإله وطبقة الموجيك (الفلاحين والعمال)، وهم يمثلون عبيد القيصر يأتمرون بأمره ولا يحق لهم الاعتراض أو المطالبة بأى حقوق لم يهبها لهم مما زاد فى نفوسهم من كبت وشعور بالقهر والظلم والحرمان.

وكان من نتيجة هذا الأسلوب القهرى أن عمال موسكو قد قاموا فى يناير ١٩٠٥م، بمظاهرة أمام القصر الشتوى للقيصر لعرض مطالبهم حسب توجيهات رجال الكنيسةالذين نبهوا العمال أن الرب قد أمر بطاعة القيصر، وأنه سوف يلبى

---

(١) نصر الله مبشر الطرازى - تركستان ماضيها وحاضرها - مرجع سابق، ص١٧٨

التركستان بإماراتها الثلاث تحت حكم روسى قيصرى، وانتدابه لبخارى إلى أن سقط الملك نيقولاى الثانى عن عرشه، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى فى فبراير ١٩١٧م.

ويذكرنا التاريخ بمقولة لينين للشعوب الإسلامية فى بدايات انهيار القيصرية، حيث قال فى ديسمبر ١٩١٧م، فى نداء وقعه لينين، وستالين جاء فيه:

«إن إمبراطورية السلب، والعنف، والرأسمالية توشك أن تنهار، والأرض التى تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل نارا، وفى كل هذه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمى روسيا، والشرق أنتم يا من تشقون، وتكدحون، وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل[1].

أيها المسلمون فى روسيا.

أيها التتار على شواطئ الفولجا وفى القرم.

أيها القرغيز والسارتيون فى سيبيريا وتركستان.

أيها التتار والأتراك فى القوقاز.

أيها الجبليون فى أنحاء القوقاز.

أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم، وقبوركم، وقضى على عقائدكم، وعاداتكم، وداس القياصرة، والطغاة الروس على مقدساتكم، ستكون حرية عقائدكم، وعاداتكم، وحرية نظمكم القومية، ومنظماتكم الثقافية، مكفولة لكم منذ اليوم.. لا يطغى عليها ولا يعتدى عليها معتد، هبوا إذن فابنوا حياتكم الآدمية كيفما شيءتم، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تريدون حائل ... إلى أن قال البيان أيها الرفاق .. أيها الأخوة ... لنتقدم سويا فى عزم، وصلابة، نحو سلم عادل، وديمقراطى.

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة فى أرجاء العالم.

أيها المسلمون فى روسيا.

أيها المسلمون فى الشرق.

إننا ونحن نسير فى الطريق الذى يؤدى بالعالم إلى بعث جديد، نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والقوة... إلى آخر البيان.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧

أكان الحكم قيصريا، أم شيوعيا، أو بمعنى آخر استعمار روسى أبيض أو استعمار روسى أحمر، فالنتيجة واحدة فالروس بعد الثورة كانوا يتعاملون بما كانوا يعتقدونه فى العهد القيصرى، أنهم أسياد لهذه البلاد.

وكان يحكمون بلاد تركستان بالحديد، والنار وبكل قهر، وقسوة مما دفع ممثلى الشعوب الإسلامية إلى الاجتماع فى مارس ١٩١٧م فى بطرسبورج فى مؤتمر طلب فيه المسلمون من الروس المساواة فى المعاملة بصفتهم أصحاب الأرض، والوطن، وفى السياسة، والثقافة، والاقتصاد، وتم تكوين مجلس شورى الجيش، والقرويين فى طشقند، وكان يمثل أهل تركستان ٥٪ من الأعضاء فقط، والباقى من الروس الشيوعيين، وهى تمثل حكومة عسكرية مؤقتة للإقليم.

وبذلك أصبح هذا المجلس شيوعيا فى أعضائه وتنظيمه، وقراراته، قبل أن يتم تشكيله على الوجه القانونى الصحيح، ثم ألغيت الحكومة العسكرية، وشكلت حكومة مؤقتة فى تركستان مكونة من ٩ أعضاء ٦ روس، و٣ تركستانيين، وعلى ذلك كانت القرارات تؤخذ بالأغلبية الروسية بلا قرارات لصالح أهل تركستان أو لصالح شعوبها لأن الجيش الروسى يحمى قرارات الحكومة المؤقتة[١].

وكان نتيجة هذه الثورة وانتهاجها أسلوبا فكريا معاديا لشعوب تلك المنطقة أن تمخض الوضع عن عدة نتائج هى:

أولا: النتائج الاجتماعية:

ونتيجة لذلك ظهرت بوادر الثورة الاجتماعية، التى عملت على خلق جبهة تركستانية مقاومة للروس الشيوعيين، ولكن كان يعوقها وجود جبهة داخلية من رجال الدين المتضادين فى الفكر، والقرار فهناك اجتماعات من رجال الدين المتعصبين المعروفين باسم السلفيين، وجماعات دينية أخرى مستنيرة تقدمية، والمعروفة باسم التجديديين، فكان النزاع القائم بينهما يعوق الحركة فى الانطلاق لتحرير البلاد أو فتح المفاوضات مع الروس الذين كانوا فى حالة غير مستقرة نتيجة حداثة الثورة وتأثيراتها الاجتماعية، والاقتصادية على البلاد إضافة للحروب الأهلية، وعدم وجود الإمكانيات المادية اللازمة لفتح جبهات قتالية جديدة.

وفى هذا الصدد يقول المناضل التركستانى العلامة مبشر الطرازى[٢] (دامت

---

(١) عناية الله إبلاغ الأفغانى - مصدر سابق، ص٤٥

(٢) المرجع السابق، ص٤٦

دون تمييز، ودون سابق إنذار فأخذت الدبابات، والطائرات تحصد المدن حصدا لا فرق بين مدنيين أو عسكريين، فأخذت تدك القلاع، والحصون، وتهدم المنازل على رؤوس سكانها.

وكان أول ما بدأ به شمال القوقاز، وشبه جزيرة القرم، وجمهورية خوقند فى تركستان واستولى على خيراتها، وتم الاستيلاء على تلك البلاد عدا شبه جزيرة القرم.

وفى سنة ١٩١٩م احتلت جمهورية (الاش أوردا) وفى سنة ١٩٢٠ احتلت شبه جزيرة القرم، وأذربيجان فى القوقاز، وجمهورية خيوة فى تركستان، وفى سنة ١٩٢١م هجم الروس على جمهورية بخارى، واحتلوها، واستمرت حركة المقاومة ضد الروس من عام ١٩١٨، ولكن دون جدوى لفرق الإمكانيات بين الطرفين(١).

المقاومة وكفاح المسلمين ضد الغزو الشيوعى:

لقد قامت حركة مقاومة فى منطقة خلف قازاقستان، بالإضافة إلى حركة المقاومة التى قامت فى خيوة، حتى أصبح إقليم فرغانة مركزا لحركتين، ولقد أطلق على حركة المقاومة مسمى (الباصماجية) وهو اسم أطلقه الروس على المقاومين ويعنى:

العصابات وقطاع الطرق، نظراً لأن حركات المقاومة كانت تبدأ بمهاجمة معسكرات المحتل ليلا، وتقوم بالاستيلاء على السلاح الذى يعاونهم على المقاومة(٢).

ومن هذا المنطلق أصبح الروس يطلقون كلمة (باصماجية) على كل حركات المقاومة الشعبية، أى قطاع اللصوص فى حين أن هؤلاء ليسوا إلا جبهة للقتال والمقاومة ضد المستعمرين، وكانت هذه الحركة تضم عددا من الأعيان المثقفين ورجال الدين، ولكن عدم توافر الإمكانيات عند رجال المقاومة فى مقابل وجود أسلحة واستعدادات عسكرية كبيرة للسلطات الشيوعية، أدى فى نهاية الأمر إلى القضاء على كل حركات المقاومة التى بدأت فى خيوة (خوارزم)، وإمارة خوقند، وبخارى، وإقليم فرغانة، وكانت أشهر تلك الحركات، تلك الجماعة التى كانت فى بخارى، والتى استطاعت تكبيد العدو الشيوعى خسائر كبيرة، حتى تمكن

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧

(٢) نصر الله الطرازى - تركستان ماضيها وحاضرها - المرجع السابق - ص٢٠٤

وكان هذا النداء ما هو إلا خدعة كبيرة أراد بها لينين ضمان وقوف الشعب التركستانى المسلم إلى جواره فى محاربته للقيصرية مستغلا فى ذلك الضغوط، والقسوة التى يعامل بها مسلمو التركستان من قبل القياصرة، وقد استجابت الشعوب الإسلامية ووقفت مع لينين كجزء أول من ندائه ثم أعلنت الاستقلال كجزء ثان لهذا النداء، ثم أعلنت استقلالها عن الدولة القيصرية، ولكن بمجرد أن اعتلى لينين كرسى الحكم فى عام ١٩١٨م، أصدر أوامره للجيش الأحمر للزحف على البلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، بكافة أنواع الأسلحة، من طائرات، ودبابات، ومدافع وغيرها، وكان التدمير قاسيا، وتم الاستيلاء على ديار الإسلام بوسط آسيا تباعا، حتى تمت السيطرة على كافة أراضى المسلمين بحلول عام ١٩٢٤م.

فقامت فى أرجاء التركستان حركات المقاومة ضد الغزو الشيوعى الغادر ابتداء من عام ١٩١٨[١].

وكان لهذا النداء الخادع عدة أهداف استراتيجية أدت إلى نجاح القوة البلشفية، وهذه الأهداف هى:

أولا: رفع الخوف فى الشعوب الإسلامية من الدخول فى التكتل الذى ينادى به أنور باشا وزير الحربية العثمانى والذى يحذر فيه من الخطر الشيوعى.

ثانيا: بعث الطمأنينة فى قلوب الشعوب الإسلامية بأن الحكومة البلشفية الروسية ليس لها مطمع استعمارى فى أى قطر من أقطارها، فيظلوا متفرقين، وبهذا يسهل احتلالهم قطرا بعد آخر.

ثالثا: بث الطمأنينة فى نفوس الشعب حتى لا يهرب الأغنياء بأموالهم، وثرواتهم إلى الخارج.

رابعا: ضمان الاستعانة بثروات البلاد ومعونة أهلها للنظام الشيوعى حتى يضمن نجاح ثورته.

ويتضح من ذلك - أن لينين قد خدع الشعوب الإسلامية بوسط آسيا بكل وقاحة، ونذالة، وتخلى عن وعوده.

ففى شهر إبريل عام ١٩١٨م أصدر لينين أمرا بالزحف على البلدان الإسلامية

---

(١) فوزى طايل - أثار تفكك الاتحاد السوفيتى - المنصورة - دار الوفاء للطباعة والنشر سنة ١٩٩٤، ص٤٥

المعالم والآثار فى تلك البلاد، وهى تنحصر فى القضاء على الإسلام وطمس هويته وترويس كل ما يمكن ترويسه، وقد اتبعت فى سبيل ذلك عدة خطوات منها[1]:

١- التخلص من رجال الدين البارزين، والمثقفين، والذين يملكون التأثير المباشر على شعوبهم، ويعرفون بعدائهم للشيوعية من أمثال الشيخ برهان البخارى قاضى قضاة تركستان، والشيخ خان مروان مفتى بخارى.

٢- التخلص من الزعماء السياسيين الأقوياء الذين يتسمون بالشجاعة، والجراءة ويمتلكون عقول الشعوب، وقلوبها، ويقفون ضد الشيوعية من أمثال الحجاج «خوخة منار» رئيس جمهورية تركستان - مولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء «عثمان ادراز» قائد مقاطعة كشغر.

٣- تبديد قوة المسلمين بإخضاعهم لموجات التنصير أو الإلحاد.

٤- تشريد المسلمين وقتلهم بأحكام الإعدام أو النفى إلى سيبيريا.

٥- خلخلة التركيبة السكانية بتفريغ جمهوريات التركستان من مواطنيها الأتراك وإبدالها بعرقيات أخرى.

٦- منع المدارس الدينية والوطنية عن تدريس اللغة العربية أو اللغات المحلية، وفرض اللغة والثقافة الروسية على مراحل التعليم المختلفة باعتبارها اللغة الرسمية.

٧- التزام فتح مدارس روسية تدرس الثقافة واللغة الروسية.

٨- إغلاق أضرحة المتصوفين المسلمين، ومنع زيارتها باعتبارها أماكن نشاط دينى وقد زاد عدد زوار هذه الأماكن بعد ان منعت السلطات الروسية الذهاب إلى الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج مما دفع المسلمين لزيارة تلك الأضرحة، ومقابر الصالحين وكبار الصوفية، إلا أن السلطات الروسية كانت تقوم بغلق هذه الأماكن أو تحويلها إلى متاحف أو نواد أو قصور ثقافة مثل قبر بهاء الدين نقشبند، وقبر شاه زنده فى سمرقند.

٩- وقد قام الروس بهدم عدد كبير من المساجد وقد بلغ عدد المساجد التى تم هدمها أو إغلاقها أو تحويلها إلى دور لهو ٦٦٨٢ مسجدا.

وقد تدخلت الدولة الروسية فى كل نشاط دينى أو غيره لتدميره وقد ساعدها على ذلك بعض العملاء من أهل تركستان ففى عام ١٩٥٩ أصدر مفتى آسيا الوسطى «ضياء الدين بهانون» فتوى تقول: إن التصوف تيار دخيل على الإسلام.

---

(١) هدى درويش - دور المتصوفين فى إسلام آسيا الوسطى - القاهرة - التصوف الإسلامى - سنة ٢٠٠٢

منهم الجيش الشيوعى، وقضى عليهم باعتبارهم حركة مقاومة تمثل شعب تركستان فقتل منهم من قتل، وهرب الكثير منهم إلى الأفغان وغيرها.

وكانت حركات المقاومة الوطنية التى تتسم بها بلاد تركستان، قد زادت فى بداية العهد الشيوعى عنه فى العهد القيصرى، إذ أن لينين بعد أن تولى السلطة شرع فى تنفيذ وتطبيق النظام الشيوعى فى أنحاء البلاد ذلك النظام الذى لا يحترم الأديان أو الممتلكات أو الحريات، والذى يدعو إلى ملكية الدولة لأدوات الإنتاج ورأس المال، ويدعو إلى الأفكار الاشتراكية فى كل نواحى الحياة إضافة إلى عدم الاعتراف بالتدين أو العبادة وعدم احترام الملكية الخاصة، وبذلك بات واضحا أن الروس لا عهد لهم، ولا دين ولا أخلاق، وأن كل هدفهم هو نهب أموال الشعوب، وثرواتها الطبيعية، والقضاء على كل فكر، ودين، ورأى، وعقيدة، والدليل على ذلك هو قيام الروس بمساعدة بعض الشباب الخائن لبلاده، ولمصلحة الروس بعمل انقلاب فى بخارى ضد الحكام الوطنيين(١).

وقد ساعدهم الروس على ذلك، ثم خدع الروس الثوار الوطنيين بالصلح ثم ما لبثوا أن استولوا عليها، وغادرها ملكها (السيد محمد عالم خان) إلى أفغانستان(٢).

ومهما كانت المقاومة الوطنية فإن إمكانيات شعب صغير مسلوب الإرادة، ومنهوب خيرات بلاده، ولا يمتلك السلاح أو القوة لا تجعله فى ميزان متساو مع عدو محتل يملك من القوة المادية، والعسكرية فى العتاد والعدة الكثير، والكثير.

ثم انحصرت تلك الحركات من المقاومة الشعبية، والوطنية فى مواجهة العدو من خلال مجالات الأدب، والشعر، والأناشيد الوطنية التى كانت تلهب حماس الجماهير، وتذكرهم دائما بتاريخهم المجيد، وبلادهم العظيمة، وعلمائهم الذين أسهموا فى بناء حضارة البشرية فكانت المقاومة الشعبية بالسلاح تقف إلى جانب تلك المقاومة الأدبية والشعرية(٣).

ثانيا: النتائج المباشرة للثورة البلشفية على مسلمى وسط آسيا:

بعد أن قامت روسيا بالسيطرة على منطقة آسيا الوسطى، اتبعت سياسة واضحة

---

(١) قسم البحوث والدعوة - دار الدعوة - مصدر سابق - ص٥١

(٢) شيرين عبد النعيم حسانين- مرجع سابق - ص١٧

(٣) شيرين عبد النعيم حسانين - مرجع سابق - ص١٧

بيان مراحل العدوان الروسى على المسلمين جاء فيه [١]، [٢]:

المرحلة الأولى: شهدت الفترة من ١٩١٨-١٩٢٤ تم فيها الزحف على البلاد الإسلامية، ودارت معارك قضت فيها على كثير من المدن واستولى الروس على شمال القوقاز واحتلت القرم وواصلت الهجوم على أذربيجان وسقطت خيوة واستمر القتال للاستيلاء على بخارى، وحدثت المجاعات التى راح ضحيتها مئات الآلاف من المواطنين، وقد ذكر لينين فى هذه الأثناء (أن أكل لحم الإنسان لم يكن مستغربا أو عجيبا فى ذلك الوقت).

المرحلة الثانية: من ١٩٢٤-١٩٢٨ وتم فيها إلغاء المحاكم الشرعية واستبدال الحروف العربية بالحروف الروسية.

المرحلة الثالثة: ١٩٢٨-١٩٣٦ وتم فيها القضاء على الآلاف من الشخصيات الإسلامية بالقتل والنفى والتشريد.

المرحلة الرابعة: ١٩٣٦-١٩٣٨ وفيها تم القضاء على الآلاف من الأساتذة - الصحفيين والطلاب كما تم فيها اتحاد الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفيتى.

المرحلة الخامسة: ١٩٣٨-١٩٤٥ تم فيها إبادة عدد كبير من المواطنين بتهم التجسس، وخاصة أتباع الطرق الصوفية، وأهل القرم بتهمة التعاون مع الألمان.

المرحلة السادسة: وهى المرحلة الأخيرة التى تم فيها القضاء على التاريخ، والفكر والأدب كما تم فيها تفسير الدين الإسلامى تفسيرات ماركسية ويسارية شيوعية.

ولكن شاءت إرادة الله أن تسقط الشيوعية، وجبروتها، ويحترم المارد الإسلامى الكامن من عشرات السنين لينطق أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

---

(١) هدى درويش - مرجع سابق - ص,٧٣

(٢) بيتماك - وسيط لينين السياسية - موسكو- دار التقدم - سنة ١٩٨٩ ص١٦٣

وفى عام ١٩٦٠م أصدر مفتى شمال قوقاز وداغستان فتوى تحرم الدعاء فى أضرحة المتصوفين، وقد أدت هذه الفتوى إلى عكس مرادها، فقد أدت هذه الفتوى إلى زيادة نشاط الطرق الصوفية فى هذه البلاد(١).

١٠- وكان من نتائج ثورة ١٩١٧ كذلك أن ابتلى المسلمون ببلية الشيوعية الملحدة فبعد أن كان المسلمون يعيشون حياة كريمة تحمل فى طياتها حرية الفرد فى دينه، وعقيدته وتملكه أصبح المسلمون يبتلون ويضربون لمجرد أنهم مسلمون، فلا يستطيع المسلم أن يجاهر بعبادته أو عقيدته وظل يعانى هذا الظلم والقهر والإبادة دون ذنب أو جريمة اقترفها إلا أنه يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله.

- إن الشعب التركستانى شعب أصيل متدين متمسك بدينه الإسلامى الحنيف، ولم تؤثر فيه الشيوعية بأفكارها وأساليبها المختلفة ومغرياتها فالإيمان محله القلب.

- إن إيمان الشعب التركستانى بمبادئ الإسلام جعله لا يتفق عقليا أو منطقيا مع مبادئ الشيوعية التى حاولت السلطات الروسية فرضها على الشعب كأسلوب حياة.

فكل ذلك خلق لدى شعب تركستان عقيدة الكفاح فى الظاهر، وحفظ دينه وهويته الإسلامية فى الباطن، ونجح فى ذلك سنوات وسنوات اللهم إلا القليل من رجال الدين أو الزعماء السياسيين الذين سايروا نظام الشيوعية فى تحقيق مخططاته، سواء أكان هؤلاء الخونة من أهل تركستان أنفسهم أم من البلاد المجاورة مثلما حدث فى أفغانستان إذ علم الروس أن الشعب الأفغانى حساس لدينه، وإسلامه، وأدرك الحكام الشيعيون أن أفغانستان من الممكن أن تساعد حركات المقاومة الإسلامية فى تركستان، ولذا سعى الروس عام ١٩١٩م لعمل صلات، ومصالح مع حاكم أفغانستان أمان الله الذى اتفق مع الروس ضد حركات المقاومة التركستانية فى بخارى وغيرها(٢).

وقد عمل الروس فى السيطرة الظالمة على مسلمى وسط آسيا عسكريا وفكريا وقد تم ذلك بتخطيط دقيق، وفى تقرير لمجلة «ملى تركستان» تحدثت فيه عن:

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨

(٢) المرجع السابق، ص٥٢

من الشواهد التاريخية فى عهد الثورة الأيديولوجية البلشفية إعادة صياغة العقائد بما يتمشى مع هذه الأيديولوجية ومن مظاهر هذه الشواهد الثابتة ما يلى :

أهم قرارات الثورة البلشفية التى تنظم الشعائر الدينية وحقوق المتدينين المسلمين:

١ - أن يعطى القانون الحق للمتدينين فى تكوين منظمات أو جمعيات دينية، وإعطائها الحق فى ممارسة الشعائر، والطقوس الدينية بشرط أن يتقدم المؤسسون بطلب للجنة التنفيذية لمجلس السوفيت فى المنطقة أو المدينة بعقد اتفاقية بينهم، وبين السلطات، ويختص بالفصل فى كافة الأمور المتعلقة بنشاط الجمعيات الدينية لجنة شيءون الأديان التابعة لمجلس الوزراء السوفيتى بواسطة فروعها المختلفة، وبدون هذا التسجيل يصبح نشاط الجمعية الدينية محظورا وغير قانونى[١].

٢- من حق الدولة أن تمنع أى نشاط لأى جمعية دينية أو تغلق أى دار للعبادة وتصادر ممتلكاتها إذا رأت أن نشاطها يخالف أهداف الدولة.

٣- لا تمانع الدولة فى إجراء المراسم الدينية للزواج ولكن لا ينعقد الزواج ولا يترتب عليه الآثار القانونية إلا بتسجيله فى سجل الأحوال المدنية.

٤- يحظر ممارسة أى طقوس أو مراسم دينية أو إدخال ما يلزم من أدوات لأداء الشعائر الدينية فى جميع المؤسسات الحكومية، والعامة فى أى مكان دون الأماكن المخصصة لأداء العبادة وإلغاء القسم، واليمين الدينى فى المناسبات الرسمية والاجتماعية.

٥- يحظر على الجمعيات، والمنظمات الدينية أن تخصص صندوقا للمعونات أو أن تقوم بأى نشاط خيرى أو عمل اجتماعات أو لقاءات أو ندوات خاصة بالأطفال والشباب، والمرأة، كما يحظر عقد أى نوع من أنواع الحلقات لتدريس الدين للمواطنين.

٦- يحظر زيارة الأماكن الدينية المقدسة حفاظا على صحة المواطنين.

٧- يمنع منعا باتا التعليم الدينى للأطفال فى المدارس، أو دور العبادة كما يحظر دخول دور العبادة للمواطنين الذين تقل أعمارهم عن ١٨ عاما.

---

(١) مالين - القانون المدنى وحماية الحقوق الشخصية فى الاتحاد السوفيتى - موسكو - دار التقدم - سنة ١٩٨٨ ص٩٥

المبحث الثانى

سيطرة النظام الشيوعى على مسلمى وسط آسيا والقضاء على المقاومة التركستانية

بعد أن استعرضنا كيف استطاع النظام الشيوعى بخداعه، ونفاقه، أن يضمن وقوف مسلمى وسط آسيا بجانبه ضد النظام القيصرى البغيض، مقابل أن يمنحهم حريتهم فى العقيدة والتملك أى الحرية الكاملة غير المنقوصة، وبعد أن استجاب المسلمون لنداءات لينين لكافة مسلمى آسيا والقوقاز وسيبريا للوقوف بجانبه مقابل الحرية، وبعد كل ذلك تنكر لينين ورفاقه لتلك الوعود وأحكموا سيطرتهم العسكرية ضد تلك البلدان، وحكموها بالحديد والنار حتى أن المجاعة أصبحت هى سمة العصر لأهالى تلك البلدان والقاسم المشترك لكيان بلدان وسط آسيا الإسلامية.

بل لقد انتهجت السلطات الشيوعية سياسة الخبث والدهاء فى القضاء على حضارة تلك الشعوب تمهيدا لترويسهم. ثم صهرهم فى بوتقة الشيوعية الملحدة التى ترى أن الأديان بصفة عامة والدين الإسلامى بصفة خاصة تقوم بدور فعال فى عرقلة مسيرة تطور المجتمع الاشتراكى الشيوعى، وتجعله يتخلف عن ركب التقدم العلمى والتكنولوجى لأن الفكر اللينينى يقوم على البناء الحزبى الماركسى الذى يخدم الأيديولوجية الشيوعية دون النظر للقوميات الأخرى(١).

ولكن تمشيا مع سياسة الخبث والدهاء السياسى، ومحاولة لينين القابع على رأس السلطة الشيوعية لإظهار الشيوعية بمظهر النظام العالمى المتحضر الذى يحترم حقوق الإنسان، فأصدر فى نفس عام ١٩١٧م أول مرسوم بعنوان «الأرض» يقضى بمصادرة جميع الأراضى المملوكة لدور العبادة لصالح الدولة وفى ٢٠/١/١٩١٨ أعلنت حكومة الثورة فى دستور الجمهورية السوفيتية مبدأ حرية الضمير، وينص على أن حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع، ثم أصدرت بعض قرارات تنظم بموجبها ممارسة الشعائر الدينية وتحدد حقوق المتدينين وواجباتهم(٢).

---

(١) غيورغى رازوفوفسكى - الثورة فى المجتمع السوفيتى - دار تاؤوكا - سنة ١٩٨٩ - ص٢٠٣

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٦.

ومن الطرق التى اتخذتها هذه الجمعيات للاعتداء على الإسلام:

إقامة احتفالات يقومون فيها بشن حملات مغرضة على العقائد الدينية، وعلى النبوة، وعلى الخالق ذاته، والعياذ بالله، وكان يتزعم هذه الجمعيات للأسف الشديد رجل مسلم من التتر يدعى «نعمة حكيم» الموالى إلى النظام الشيوعى، وكان يطعن فى صحة النبوة والقرآن ووجود الله (حاشا لله).

ومن أبشع ما ارتكب الشيعيون فى هذا الصدد، أن قام الشيوعيون بايعاذ من الجمعية اللادينية فى طشقند أن خرجوا سنة ١٩٢٤ فى مظاهرة تم رسم الأنبياء فيها بصورة ساخرة وطافوا بها شوارع المدينة هاتفين ضد الأديان، ولا سيما الإسلام باعتبار أن الدين أفيون الشعوب.

بل زادت ضغوط السلطات الشيوعية على المسلمين بأن فرضت ضرائب باهظة، على كل جامع أو مسجد تجبى فى العام مرتين أو ثلاث من المسلمين الذين يحضرون لصلاة الجماعة ولا سيما الجمعة واستماع الخطبة[١].

أشكال الصراع بين الفكر الشيوعى والفكر الإسلامى:

إن تطبيق المبادئ الشيوعية على مسلمى تركستان بطريق الإرهاب الشيوعى الهدام بدأت ظلما وقهرا بعد الاحتلال الشيوعى لبخارى سنة ١٩١٨م ولإمارة خيوة سنة ١٩٢٠م وكانت هذه المبادئ تتلخص فى الآتى[٢]:

١- الإنكار التام لكل دين من الأديان، لأن الواجب على الشيوعى أن ينكر الله ورسله وكتبه السماوية وإلا سيكون جزاؤه الطرد من وظيفته ومنعه من حقوقه.

٢- القضاء على كل خلق يستلزم الحياء لأن الحياء من الدين، ويجب تعميم الإباحة فى كل شىء بين أفراد الشعب.

٣- محاربة الأديان كلها ولاسيما الدين الإسلامى وتعاليمه.

٤- القضاء على الشخصية الحرة، ومصادرة الأراضى، والمزارع، والأملاك والمصانع لحساب الحكومة بدون مقابل.

٥- فرض الضرائب الباهظة على الشعب لزيادة أعبائه، واحتياجه الدائم للدولة، وبالتالى بقبوله للمبادئ الشيوعية.

---

(١) أحمد رائف - شمس الإسلام - العدد التجريبى الأول- مصدر سابق - ص٥٧

(٢) نصر الله الطرازى - المصدر السابق، ص١٣١

٨- يحظر على رجال الدين استغلال الخطب للتعبير عن وجهات نظر سياسية أو اجتماعية أو توجيه أى بيان أو منشور ليس فى صالح الدولة.

٩- يضمن القانون المساواة بين المواطنين فى الدين، وبالتالى يقضى بعدم النص على دين المواطن أو الطائفة الدينية التى ينتمى إليها فى أى وثيقة رسمية.

١٠- يحظر على الجهات المحلية أو المركزية تخصيص أى اعتمادات مالية لصالح المؤسسات الدينية سواء كانت هذه الاعتمادات فى شكل إعانات مفروضة على المواطنين تكسب صفة الالتزام أو غيرها(١).

وفى نفس الوقت الذى أُطلِقَت فيه الشعارات، والقرارات انطلقت الجيوش الروسية الشيوعية تحميها المدرعات، والدبابات، والطائرات بالهجوم على الشعوب التركستانية، وإخضاعها بالقوة للسيطرة السوفيتية حتى كان لها السيطرة الكاملة على تلك الشعوب، ثم كانت محاولة إبادة تلك الشعوب عن طريق القتل والتصفية الجسدية أو النفى أو السيطرة الفكرية.

وفى هذا الصدد يحدثنا العلامة مبشر الطرازى الحسينى فى محاضرته «إجمالى حالات المسلمين فى روسيا»:

«كانت حملات الحكومة الشيوعية على حرية التدين تظهر فى أنها بدأت توجه ضرباتها القاسية للإسلام، والمسلمين بإيفاد مبشرين شيوعيين إلى مختلف البلدان، والقرى، وكانوا يقولون فيما يقولون:

إن الدين يحمى الرأسمالية، وأن الدين وسيلة حياة لعلماء الدين، وأن الدين يمنع الشعب من التمدين، ويقوده إلى الجهل والجمود والتأخر»(٢).

ثم زادت حدة الاضطهاد الشيوعى الماركسى الإلحادى للإسلام، والمسلمين بتلك المناطق حتى أنشأت الحكومة الشيوعية فى العديد من المدن والقرى جمعيات مناهضة للأديان بصفة عامة وبالإسلام بصفة خاصة باسم الجمعيات اللادينية (أى جمعية الذين لا دين لهم) (٣).

---

(١) العلامة مبشر الطرازى - إجمالى حياة المسلمين - مخطوط بمكتبة نجلة د/ نصر الله الطرازى، ص٦

(٢) مبشر الطرازى - المرجع السابق - ص٧

(٣) نصر الله الطرازى، تركستان ماضيها وحاضرها - مرجع سابق، ص٢٣٠

١٦- حث الشيوعيين جميعا نحو تحويل العالم إلى الفكر الشيوعى من خلال تصدير الفكر الشيوعى بقطاعات العمال فى كل أرجاء العالم[١].

ثم شرعت الحكومة السوفيتية بعد ذلك وعلى الفور فى استكمال تنفيذ مخططها الشيوعى فقامت سنة ١٩٢٣ بتمزيق أواصر الشعوب الإسلامية، وذلك بتقسيمها إلى ست دول طبقا للأغلبية وهذه الدول:

«أوزبكستان - تركمنستان - طاجكستان - قازاخستان - قيرغزستان - أذربيجان»

وضمها إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية تحت اسم جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بدلا من تركستان والذى ألغى بقانون سنة ١٩٢٤[٢].

وقد كان عماد هذا التقسيم الاختلاف فى اللهجات رغم أن معظم لهجات هذه الشعوب تنتمى إلى اللغة التركية، وكان الهدف من ذلك التقسيم هو فرض اللغة الروسية لقطع أى صلة بين هذه الشعوب، وتراثها الإسلامى.

وقد ركز الفكر الشيوعى على حتمية وفاعلية دور النقابات العمالية والزراعية فى خدمة مخططات الدولة، وبذلك فكان دور هذه النقابات هو محاولة تربية الفرد التربية الفكرية والسياسية والعملية الشيوعية وذلك من خلال نشر العقيدة الماركسية اللينينية لخدمة التيار الاشتراكى الشيوعى[٣].

وتقوم هذه النقابات بما يسمى محو الأمية الفكرية بين السكان وفتح نظام التعليم الشعبى أمام الكولخوزات[٤] لتطوير الفكر الاجتماعى.

كما كانت هذه النقابات تقوم بدور خطير فى محاولة مخاطبة الحركات النقابية العالمية من خلال مبدأ تصدير الفكر الاشتراكى[٥].

وكان من مظاهر صدام الفكر الشيوعى بالدين الإسلامى هو صدور القانون السوفيتى فى الأحوال الشخصية والمدنية إذ تضمنت أحكامه العديد من المبادئ المخالفة للشريعة الإسلامية وهذه المواد ملزمة وواجبة الاتباع منها على سبيل المثال[٦]:

---

(١) عبد المنعم النمر - إسلام لا شيوعية. دار غريب للطباعة سنة ١٩٩٧، ص٢٣

(٢) شيرين عبد النعيم حسانين - مرجع سابق، ص٢٨٣

(٣) أوتكين - ما هى النقابات - موسكو - دارالتقدم سنة ١٩٨٩، ص١٥٢

(٤) الكولخوزات: تعنى المجمعات الزراعية والتجمعات العمالية التعاونية.

(٥) المرجع السابق، ص١٨٢

(٦) مالين - القانون المدنى وحماية حقوق الإنسان - الاتحاد السوفيتى - موسكو - دار التقدم سنة ١٩٨٨، ص٨٩

٦- منح الحرية للمرأة فى طلب التطليق والحياة بحرية شخصية فى ظل الشيوعية.

٧- القضاء على المدارس الدينية، والمساجد، وتحويلها لنواد ومقاهى وأماكن لسكن المهاجرين الروس(١).

٨- اتخاذ السياسة الديكتاتورية وسيلة ضغط على حرية التعليم والتعبير والصحافة والنشر إلا ما يخدم الفكر الشيوعى.

٩- القضاء على كل حزب غير شيوعى أو على كل مسلك أو فكر غير شيوعى.

١٠- إبعاد أهل البلاد من المراكز المهمة أو تعلم الصناعات الدقيقة وجعل الزراعة هى مهنة غالبية الشعوب التركستانية، وهى معسكرات للزراعة الجماعية تحت إشراف الدولة وكذلك قطاع العمال وإجبار المسلمين على تربية الخنازير رغم أن الدين الإسلامى يحرم ذلك.

١١- احتكار التجارة بكل أنواعها للحكومة.

١٢- تقسيم أفراد الشعب إلى قسمين: قسم له كافة الحقوق فى الدولة، وهو الذى اعتنق مبادئ الشيوعية طوعا أو كرها، وقسم ليس له حقوق، وهو الذى رفض الفكر الشيوعى ومنهم طبقة القولاق(٢).

١٣- نشر الشيوعية بين مختلف الأفراد بالتعليم الإجبارى، وإرغامهم على قبول مبادئ الفكر الشيوعى سواء فى المدارس أو من خلال النقابات.

١٤- دفع أفراد الشعب للعمل جواسيس على بعضهم البعض، ولتكون الجاسوسية فى كل أسرة لصالح النظام(٣).

١٥- حث أفراد الشعب على محاربة الدول غير الشيوعية، وإثارة الشعوب بها وذلك طبقا لما صرح به لينين حين قال: «إنه ما دامت الرأسمالية الدولية قائمة تبقى هذه الدول معادية للاتحاد السوفيتى»(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨

(٢) القولاق: هى الطبقة التى لا حقوق لها فى ظل النظام الشيوعى لتمسكها بأسمائها الإسلامية أو لرفضها الفكر الشيوعى.

(٣) نصر الله الطرازى - المرجع السابق ص٧٥

(٤) المرجع السابق، ص١٣٢

والطورانية نجد أن الروس من السلاف الصقالبة وعلى ذلك فإن التوسع الروسى فى تلك المناطق هو توسع استعمارى جديد، يحاول طمس هوية الشعوب وتغيرها ديمغرافيا، بإعادة ترسيم الحدود لها على أسس عرقية وقبلية أو غيرها[1].

وكان مبدأ فصل الدين عن الدولة من ضمن المخططات للفكر الشيوعى لضرب وحدة الإسلام والمسلمين، وقد نجح فى ذلك بعد سلسلة من المقاومات الوطنية الشعبية التى قام بها المثقفون ورجال الدين والذين اتخذوا طابع الانتفاضة الشعبية فى أول الأمر ثم انتهى إلى الجهاد المسلح.

وفى هذا الصدد قال أتابييف رئيس مجلس مفوض جمهورية تركستان فى كلمته التى ألقاها فى الاجتماع الرابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى البلشفى فى جمهورية تركستان سنة ١٩٢٠، وهو يتحدث عن الآثار السلبية لمبدأ فصل الدين عن الدولة إذ أن تطبيق مبدأ الفصل يستلزم بالضرورة منع القضاة الشرعيين، وغلق المؤسسات الدينية، ومصادرة الأوقاف، وقد تم ذلك فى الفترة من ١٩١٩ / ١٩٢٠ وهذه الإجراءات هى التى سببت سخط الجماهير الواسعة فى آسيا الوسطى، وعززت حركة البسماتش (البصماجية) التى أخذت طابع الانتفاضة الشعبية ضد السلطات الشيوعية وهنا قال أتابييف فى الاجتماع المشار إليه:

«إن مدينة فرغانة كانت قد شهدت فى عامى ١٩١٩ / ١٩٢٠ ليس حركة لصوص وقطاع طرق إنما انتفاضة شعبية، وقد أدى هذا التعريف غير الصحيح للحركة إلى الموقف غير الصحيح لحل هذه القضية وقال:

«كان من المقرر القضاء على هذه الحركة حركة البسماتش بالنار، والسيف، قد كانت القرى والأرياف التى يتواجد فيها أنصار الحركة تدمر بلا هوادة". ثم يستطرد قائلا:

«إن شعار النظام الشيوعى الاشتراكى وهو شعارنا: ليسقط نظام العالم القديم، «ولتسقط البرجوازية» [2] ويرى الباحث أن هذا الشعار كان يطبق على أرض الواقع بالشكل الذى يعتبر أن العالم القديم هو المساجد والمدارس الدينية التى تم إغلاقها، وأيضا القضاة وعلماء الدين الذين تم القبض عليهم، أما مكافحة ما يسمى بالخرافات الدينية فنشطت فى إحراق المصاحف وهو الكتاب المقدس

(١) جمال حمدان - الاستراتيجية الاستعمارية والتحرير - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠، ص١١٤

(٢) عبد الوهاب نور الله بيف - مجلة شمس الإسلام - العدد التجريبى - مصدر سابق - ص١١٥

١- يعاقب جنائيا كل مواطن مسلم أو غير مسلم يتزوج أكثر من زوجة.

٢- يقر القانون التبنى (وهو مخالف لأحكام الشريعة الإسلامية).

٣- لا يعتد بأى زواج لا يسجل فى الدوائر المدنية للدولة، ولا يترتب عليه أى آثار قانونية بصرف النظر عن مدى شرعيته دينيا من عدمه.

هذا بالإضافة للعديد من الأحكام الأخرى التى تصطدم بأحكام الشريعة الإسلامية وكان لزاما على الشعب المسلم التحايل على هذه الأحكام لمسايرة الحياة العملية، وفى نفس الوقت الحفاظ على الهوية الإسلامية.

وفى عام ١٩٢٤م تم تخطيط الحدود بين الدول فى آسيا الوسطى على أساس قومى[١] فحتى ذلك الحين كان هناك ثلاث تكوينات من الدول: جمهورية تركستان الاشتراكية السوفيتية ذات الحكم الذاتى، وكانت تدخل ضمن جمهورية روسيا الاتحادية مع جمهوريتى بخارى، وخوارزم الشعبيتين السوفيتيين المستقلتين، وأنشئت هذه الجمهورية ضمن الحدود القديمة لولاية التركستان السابقة، وإمارة بخارى وخانية خيوة، وفى سبتمبر من نفس العام اتخذت الهيئة العليا لسلطة الدولة فى تركستان وخوارزم وبخارى قرارات حول إجراء تخطيط وترسيم حدود الدول على أساس قومى فى آسيا الوسطى، ونتيجة لهذا التحديد والترسيم ظهرت جمهوريتان جديدتان هما:

جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية، جمهورية تركمانيا الاشتراكية السوفيتية، وكذلك جمهورية طاجكستان ذات الحكم الذاتى، والتى تدخل فى قوام جمهورية أوزبكستان كذلك مقاطعتان ذات حكم ذاتى هما قرة قيرغيز وهى تدخل فى قوام جمهورية روسيا الاتحادية، وقرة قالباق وهى تدخل فى قوام قازاخستان ذات الحكم الذاتى[٢].

وأيا كان هذا التقسيم وهذه التسمية فإن أرض الواقع تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذه المناطق التى ضمتها روسيا لقوام جمهورياتها هى استعمار بمعنى الكلمة، وإن كانت تجمعهم ظروف جغرافية واحدة كوحدة الأرض والمناخ فهم يختلفون تماما من ناحية التركيبة السلالية، فحين نرى أن سكان تلك المناطق المختلفة سواء فى سيبيريا أو التركستان من العناصر المغولية والتركية والتترية

---

(١) كاشين تشيركاسوف - ما هى الفترة الانتقالية - موسكو - دار التقدم سنة ١٩٨٨، ص٢٠٦

(٢) فوزى طايل - مرجع سابق، ص٢١٣

الجماهير على النظام السوفيتى، الذى تدارك ذلك بإجراء بعض التعديلات على قرارات المؤتمر الرابع لسوفيت خوارزم المشار إليه، وتم إعطاء الحق للمواطنين فى الترشيح للانتخابات النيابية، وتم رد أراضى الوقف للمنظمات الدينية وأعيد إنشاء المحاكم الشرعية.

وقد كانت حالات المد والجزر بين الفكر الإسلامى والمبادئ الشيوعية مستمرة فكان الاصطدام حتميا من الوجه الإسلامى، أما من الناحية السوفيتية فكان يصطدم أحيانا ويرضخ أحيانا أخرى لامتصاص غضب الجماهير، ولكن لا يلبث أن يعود إلى سابق عهده الوقح الذى يتطاول فيه على الدين ويحاربه[١].

ولقد اتخذ النشاط المعادى للإسلام من قبل النظام الشيوعى أبعادا ليس لها مثيل إذ قرر ستاليين فى إحدى مؤتمراته الاشتراكية فى ٩ سبتمبر ١٩٢٧م:

لا يمكن لحزب أن يكون محايدا فى الخرافات الدينية، وخدمة رجال الدين الرجعيين الذين يسممون وعى الجماهير الكادحة وهل نحن أسكتنا خدمة رجال الدين الرجعيين؟ نعم أسكتناهم ولكن لم يتم القضاء عليهم بعد بصورة تامة[٢].

وتدل وثائق أرشيف المركز الروسى لحفظ ودراسة وثائق التاريخ الحديث على أنه منذ عام ١٩٢٦م على الآتى:

«أناطت قيادة أجهزة أمن الدولة والجهاز الأيديولوجى إلى الحزب مهمة إعداد المقترحات حول تنظيم الهجوم الحاسم على المواقع الإسلامية»، غير أن مذكرة «المسألة الدينية فى الجمهوريات الشرقية» والمؤرخة ٢٠ يوليو ١٩٢٦ والتى رفعت إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى البلشفى الروسى قد جاءت تتضمن عدة توصيات.

وكانت التوصيات دائما توصى بعدم التردد أمام اتخاذ الإجراءات اللازمة لمكافحة حركة المسلمين الدينية باتخاذ إجراءات قمعية فى إطار المحاكمة أو خارجها تجاه الفكر المعادى للثورة من رجال الدين الإسلامى، والتقليل الحاد لإمكانيات تعليم الجيل الناشىء مبادئ الإسلام، وكذا تقليل أعداد الأئمة للمساجد[٣].

---

(١) أحمد رائف - مرجع سابق - ص١٩

(٢) عبد الوهاب نور الله بيف - مرجع سابق - ص١٢٢

(٣) عبد الوهاب نور الله بيف - مرجع سابق، ص١١٩

للمسلمين من قبل ممثلى السلطة السوفيتية، والذين حولوا الجامع الكبير فى مدينة أندجان إلى ثكنات للجنود»، ثم يستطرد أتابييف قائلا:

«كانت فصائلنا تهاجم الجوامع وتلقى القنابل على المصلين فيها، ومنهم علماء الدين، والدراويش (رجال الصوفية) والنتيجة هى أن الفئة التى اشتملت على علماء الدين ومرشدى الدراويش ذهبت بكاملها لتلتحق بفصائل البسماتشى[1].

وإذا أضفنا إلى ذلك أنه تم تأميم حصص الأرض لدى الفلاحين، وكل الصناعات الحرفية وإغلاق كل مصانع حلج القطن، ومعامل الزيت، وبالتالى انخفاض حجم الإنتاج الزراعى إلى الثلث، وإنتاج القطن إلى العشر، كل هذا دفع جميع السكان إلى عدم الانسجام مع النظام السوفيتى الجديد وعلى ذلك كان لابد من تهدئة السكان والشعوب».

ومن هذا المنطلق وفى أغسطس ١٩٢١م تقدم أحد قادة البسماتشى، ويدعى (الأبار) إلى السلطات السوفيتية بوقف أعمال الحركة، ووقف الصراع مع السلطات السوفيتية بشرط الحفاظ على حرية الشريعة الإسلامية والمؤسسات التعليمية الدينية، وفتح المساجد، وإعادة القضاة، وإعادة الأوقاف إلى المنظمات الدينية وإعادة نظام الملكية الخاصة للأراضى والمصانع والحرف.

وفى ١٨ / ٥ / ١٩٢٢ صدر قرار العفو العام عن حركة البسماتشى وتمت تلبية كل طلباتهم السابقة وهدأت الحركة بعد حل القضايا التركستانية البخارية.

ولكن وتمشيا مع المبدأ القائل «لا أمان لمن لا دين له».

فهذا كان نهج الشيوعية فبعد اتخاذ هذه الإجراءات فى منطقة بخارى التركستانية، كانوا يواصلون فى جمهورية خوارزم الشعبية السوفيتية، انتهاج نهج صارم تجاه المنظمات الدينية الإسلامية ورجال الدين؛ ففى أكتوبر عام ١٩٢٣ أعلن المؤتمر الرابع السوفيتى فى خوارزم فصل الدين عن الدولة، ومصادرة أراضى الوقف لصالح الدولة وهو ما كان يشكل نحو ٤٠٪ من إجمالى الأراضى الزراعية فى الجمهورية، ومنع رجال الدين من الترشيح فى الانتخابات. فمثل هذه الخطوات المتطابقة مع خطوات خاطئة أخرى اتخذتها حكومة خوارزم السوفيتية، أدت إلى عواقب سياسية خطيرة، إذ أنها أبعدت عن السلطة الثورية الشرائح الموالية لها من البرجوازية الوطنية ورجال الدين والجزء الأكبر من الفلاحين، مما زاد سخط

(١) المصدر السابق، ص١١٦

لمسلمى آسيا الوسطى والقوقاز المفتى «عبد الرحمن رسوليف» يشكره فيها على وقوف المسلمين بجانبه، وفى بادرة من الحكومة الروسية لإقامة علاقات طيبة مع مسلمى وسط آسيا فقد وافقت روسيا على تأسيس الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى، وقازاخستان، ثم تأسيس الإدارة الدينية لمسلمى شمال القوقاز ثم الإدارة الدينية لمسلمى منطقة ما وراء القوقاز، وافتتحت مئات المساجد وزادت أعداد المساجد أضعافا مضاعفة عما كانت عليه بصورة قانونية ودستورية ولكن لم يدم ذلك طويلا لأن روسيا الشيوعية كانت دائما تبنى علاقاتها مع الغير على أساس المصلحة المطلقة للجانب الروسى دون النظر لمصلحة الآخرين(١).

وفى عهد خيروتشوف تم إغلاق المساجد مرة أخرى، وإهانة رجال الدين، حتى تم اتخاذ قرار عام ١٩٥٨م حول إيقاف الحج لما يسمى بالأماكن المقدسة، وتم تحطيم مئات الأماكن التى كانت تحظى باحترام المسلمين والاستهانة بالشعور الدينى لملايين المسلمين، وعمل كل شىء يصل إلى استئصال الدين الإسلامى من نفوس الشعوب المسلمة.

ومن ثم نجد أن النظام الشيوعى الإلحادى كان يعمل بمخطط خبيث وحقير ضد الإسلام فالنظام الشيوعى على مختلف مراحله ورغم سلامة موقف المسلمين معه كان غادرا دائما وكل ذلك كان يثير الإحساس القوى لدى المسلمين بالظلم، والاضطهاد مما أعطى تلك الشعوب المقهورة دفعة نحو عملية استقلال الجمهوريات الإسلامية، التى أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتى وكان هذه هى الإرهاصات الأولى لدفع هذه الدول لإعلان الاستقلال إذ سبق ذلك افتتاح عدد كبير من المساجد والمدارس الدينية فى عام ١٩٨٩م، وتم تسجيل ٣٣٧ جمعية إسلامية، وتم إنشاء المساجد الجديدة، وتعليم النشء القرآن والدين الإسلامى مما دفع البرلمان السوفيتى الأخير، وأثناء متابعته لهذه الأحداث، والمتغيرات الجارية فى أكتوبر ١٩٩١، أن يقرر إصدار قانون حول حرية الشىءون الدينية، والمنظمات الدينية، والذى يعطى الحرية للمواطنين بتأسيس المنظمات الدينية، وبناء المساجد، والكنائس، وإنشاء المؤسسات، والمدارس التعليمية الدينية، وهذه القوانين الأخيرة قد فتحت المجال لبدء عملية انبعاث الإسلام على أراضى الاتحاد السوفيتى القديم، واستقلال الشعوب الإسلامية وأن تعلو كلمة الحق.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٣

وعلى ضوء هذه التوصيات أصبح الحزب الشيوعى ينظر إلى رجال الدين الإسلامى باعتبارهم جزء لا يتجزا من المعسكر المعادى له، وأنهم قوة رجعية واحدة تواجه البروليتاريا المناضلة وعلى ذلك فإن الحزب بأسره توجه نحو المكافحة الدائمة ضد كل فئات رجال الدين.

وبعد توصيات ستالين هذه بدأ الهجوم المباشر على الإسلام ففى مايو سنة ١٩٢٨م، تم إغلاق المدارس الدينية الإسلامية، وتوالت الإجراءات من مصادرة الكتب وتم إغلاق المساجد وفتح النوادى وتكوين ما يسمى بشبيه الحزب (الكومسومول)، ولم تكتف السلطات الروسية بغلق المساجد، بل أخذت فى هدمها وطرد الآلاف من رجال الدين من مساكنهم، وامتد الظلم والقهر على كل الشعب حتى الفلاحين، فتمت مصادرة أراضيهم وأدواتهم الزراعية، ومواشيهم، وإلحاق هؤلاء الفلاحين بالتعاونيات الزراعية والكولخوزات إجباريا، وتحت إشراف الدولة وامتد القهر والظلم إلى عموم المراكز المهمة التى لها تأثير جماهيرى، وتأكيدا لذلك أنه فى ١٥ إبريل سنة ١٩٣٠ بعث «فخر الدينوف» وهو المفتى، ورئيس إدارة المسلمين لعموم روسيا خطابا إلى هيئة الرئاسة باللجنة المركزية التنفيذية للحزب فى روسيا الاتحادية، يلفت اهتمام قيادة البلاد إلى ضرورة تحطيم منظمات المسلمين الدينية من قبل السلطات، مشيرا إلى عدم شرعية هذه الهيئات، وتضمن الخطاب أنه تم إغلاق عشرة آلاف مسجد من ١٢ ألف مسجد تعتبر تحت إشراف الإدارة الدينية للمسلمين، وأن ٩٠-٩٧٪ من الأئمة ورجال الدين والمؤرخين ليست لديهم إمكانية أداء واجباتهم، ومع ذلك فقد كانت مقاومة المسلمين فى منطقتى آسيا الوسطى والقوقاز ضد الهجوم المعادى للإسلام قوية وصلبة رغم فارق الإمكانيات المادية والبشرية ومع ذلك فكان الإيمان بالله هو السلاح الفعال ضد هؤلاء الملاحدة[١].

واستمرارا لمسلسل الغدر والخيانة من قبل السلطات الروسية أراد ستالين التقرب من الشعوب المسلمة فى وسط آسيا والقوقاز للوقوف معه ضد النازية الفاشية فى الحرب العالمية الثانية، ووقف معه بالفعل المسلمون، وجمعوا التبرعات لصناعة الأسلحة وتقدموا الصفوف فى جبهات القتال دفاعا عن الوطن حتى أن ستالين أرسل فى مارس سنة ١٩٤٣ برقية شكر إلى رئيس الإدارة الدينية

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٢

الباب الثانى

لمحة تاريخية عن تشكيل وقيام الاتحاد السوفيتى

الفصل الثانى

قيام الاتحاد السوفيتى وضم جمهوريات وسط آسيا

المبحث الأول : التقسيم الإدارى والتغير الديموغرافى لتركستان.

المبحث الثانى : الفكر الشيوعى وأثره فى إنشاء الإدارات الدينية.

خلاصة القول:

من الثوابت التاريخية أن الثورة البلشفية الماركسية قد جاءت تحمل بين طياتها مبادئ الشيوعية، تلك المبادئ التى اعتمد فلاسفتها، ومنظروها على اسس لا تتفق مع طبيعة البشر، وفطرة الله التى خلق الناس عليها.

ولعل هذا من رحمة الله سبحانه، فقد كانت هذه النظرية تحمل فى طياتها عوامل هدمها والقضاء عليها إذ كانت أسس النظرية الشيوعية الماركسية من الناحية الفلسفية تقوم على الإلحاد، وإنكار وجود الله سبحانه وتعالى، وأن الأديان هى من اختراع البشر لحماية مصالحهم، وأن الدين هو أفيون الشعوب، ويجب القضاء عليه، وأصبح الإلحاد يدرس كمادة منفصلة فى جميع المراحل التعليمية، ومع ذلك لم يستطع هذا النظام الشيوعى الماركسى بكل آلياته، وإمكانياته من التأثير على العقيدة الإسلامية التى ظلت لسنوات طويلة يحافظ عليها عقول، وقلوب وصدور مسلمى وسط آسيا، وظل الإسلام بتقاليده، وتعاليمه ساكنا قلوب وعقول مسلمى وسط آسيا، ونتيجة لعدة أسباب انهار الاتحاد السوفيتى لتخرج تلك البلدان مرة أخرى لتعلن عن هويتها الإسلامية، والتى حافظت عليها سنوات وسنوات.

١- بالجمهورية الاشتراكية السوفيتية وعددها ١٥ جمهورية

٢- جمهورية اشتراكية سوفيتية مستقلة ذاتيًا وعددها ٢٠ جمهورية

٣- مناطق ومقاطعات إدارية مستقلة ذاتيًا وعددها ١٢ منطقة

(وتوجد هذه المنطقة الثالثة فى مناطق سيبيريا)

٤- مجموعة عرقية ليس لها أقاليم خاصة وعددها ٨ مجموعات

وقد جاءت المادة ٧٢ من دستور الاتحاد السوفيتى القديم لتعطى الحق للجمهوريات فى الانفصال عن الاتحاد السوفيتى، فى حين تحرم من هذا الحق الجمهوريات ذات الحكم الذاتى، وبالتالى لا يحق للمناطق أو المقاطعات ذات الحكم الذاتى مثلها مثل المجموعات العرقية، والتى تعد أقل التقسيمات الإدارية فى تشكيل الاتحاد السوفيتى، وبعض المجموعات العرقية ليس لها مكان محدد مثل الألمان - البولنديين - تتار القرم[١].

أما الحديث عن تتار القرم هذا الشعب الذى تم طرده بالكامل من أراضيه، بسبب اتهامات ثبت بعد ذلك براءة هذا الشعب منها، وهى اتهامه بالخيانة العظمى لوقوفه بجوار الألمان فى حربهم ضد روسيا فى الحرب العالمية الثانية.

وكان نتيجة لذلك طرد الشعب بكامله بعد إبادة، وتشريد الكثير والكثير، ثم قام خريشوف الرئيس السوفيتى بمنحها كهدية لأوكرانيا عام ١٩٥٤، حيث أصبحت القرم من هذا التاريخ منطقة أوكرانية.

وهكذا أصبح تصنيف الشعوب الإسلامية يدور بين جمهوريات اشتراكية سوفيتية مرة أو جمهوريات ذات حكم ذاتى أو وحدات إدارية مستقلة ذاتياً، وهذا التصنيف لا يخضع إلا للتطبيق النظرى، أما على أرض الواقع فيختلف كثيراً فمن الممكن لمجموعة عرقية أن تتمتع بحقوق جمهورية ذات حكم ذاتى، بينما تحرم قومية من إقليمه، ومن الواضح أن هذا النظام فى تصنيفه، وعدم دقة تطبيقه، قد خلق وضعا إداريا وسياسيا مشوشا وغير واضح المعالم لهذه الجمهوريات والتقسيمات الإدارية.

نظام التصنيف الذاتى المبنى على المميزات الجوهرية لدى القوميات[٢]:

وهذا التصنيف وضع خطوطه الأولى ستالين فى البحث المقدم منه، والمشار

---

(١) تليماك - وصية لينين - مرجع سابق - ص٦٣

(٢) أحمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - مرجع سابق - ص٢٣

الفصل الثانى

المبحث الأول

التقسيم الإدارى والتغير الديموغرافى لتركستان

مقدمة:

يتناول هذا الفصل قضية محورية تدور حول العلاقة بين المكان الجغرافى، والتوزيع السكانى، وهو توزيع مقصود يهدف إلى خلخلة التركيب السكانى للمنطقة، وإعادة توزيعه لأصناف متماسكة، واستلاب هويته، وإذا ما تأملنا هذه الحقيقة نجدها تندرج فى أهداف منظمة تسعى إلى غاية مزج القومية، والهوية الإسلامية فى أيديولوجية ماركسية تحتويها، والتغير الديموغرافى الذى شهدته منطقة آسيا الوسطى، والقوقاز فى العهد الشيوعى، إنما هى فكرة مستوحاه من بحث كتبه ستالين وأيده لينين، ونشره عام ١٩١٤، وكان البحث بعنوان الماركسية، والمسألة القومية(١).

وبناء على تنفيذ خطوط هذا البحث المشار إليه، وطبقا لإحصاء ١٩٧٩، نجد أن سبعا وثلاثين قومية مسلمة لا تخضع لنظام إدارى واحد، ولا تعامل معاملة واحدة وأن درجة الاستقلال الذاتى التى منحت لهم لابد أن تندرج تحت أحد معيارين:

المعيار الأول: معيار ذاتى وهو يتعلق بالمجموعة البشرية، وتطورها التاريخى ومستواها الثقافى، وعلى هذا النحو يميز بين الأمة، والقومية والمجموعة العرقية.

المعيار الثانى: معيار غير ذاتى، وهو يصنف الأقاليم التى تستوطنها هذه الشعوب حسب أنظمتها الإدارية والسياسية.

ومن هذا المنطلق وطبقاً للمعيار الأول نجد أن الاتحاد السوفيتى يشتمل على العديد من أشكال الجمهوريات، والمجموعات الإدارية والسكانية فنجد ما يسمى(٢):

---

(١) أحمد فؤاد متولى، هويدا محمد فهمى - الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز - القاهرة بمركز الدراسات الشرقية سنة ٢٠٠٠ - ص٢٢٠

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٠

العودة إلى أرض أجدادهم، واختفوا من إحصائيات (١٩٥٩-١٩٧٠-١٩٧٩)، وذلك لجريمة لم يرتكبوها بحجة تعاونهم مع الألمان، ثم بيضت رسمياً صفحتهم فيما بعد، ولم يعد يظهر تتر القرم غير مجموعة عرقية بين تتر الفولجا، وحكم عليهم بالدمج معهم.

ولم يعد هناك غير أربعة عشر شعبا مسلماً فقط عدد كل منهم أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة (وهو العدد الذى يراه المسئولون السوفيت لازماً لكى يطلق على الشعب لفظ أمة، وهذه الشعوب طبقًا لإحصاء ١٩٧٩:

١- الأوزبك

٢- التتر

٣- القازاق

٤- الأذر

٥- الطاجيك

٦- التركمان

٧- القرغيز

٨- البشكير

٩- الشاشان

١٠- الأوسيت

١١- الأوار

١٢- اللزغين

١٣- الكبردين

١٤- القراقالباق[٢].

ثانيًا: القومية:

إذا افتقد أحد المعايير الستالينية التى تعتبر إلزامية لكى تعتبر إحدى المجموعات أمة حينئذ لا يمكن لهذه المجموعة أن تعتبر أمة، وإنما - بأفضل حال ممكن - أن تصبح قومية والأمر نفسه إذا كانت المجموعة قليلة العدد، وقد

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥

إليه بهذا الشأن إلا أن هذا البحث وهذه النظرية التى بنيت على أساس الأمة والقومية ولا تخلو من أخطاء منها:

أولاً: الأمة:

فى نظرية ستالين هى تجمع بشرى مستقر تآلف تاريخيا وولد على أساس الوحدة اللغوية، والإقليم والحياة الاقتصادية والتكوين النفسى الذى يتحلى بالوحدة الثقافية.

وبناء على ما تقدم فإن معايير تطبيق هذه النظرية هى[1]:

أ- **الوحدة اللغوية:** يوضح ستالين أن هناك لغات شعبية يتكلم بها الشعب، ولا يوجد لهم لغة رسمية للكتابة.

ب- **الوحدة الإقليمية:** أن الأمة تتكون من خلال علاقات مستديمة، ومنظمة وحياة مشتركة بين أشخاص جيل بعد جيل، ومن ثم يكون الإقليم مع اللغة أهم عوامل قيام الأمة.

جـ- **وحدة الحياة الاقتصادية:** «ترابط اقتصادى داخلى يصهر مختلف أجزاء الأمة ويجعلها كلا واحدا».

د- **وحدة التكوين النفسى التى تتحلى بالوحدة الثقافية:** «تتميز الأمم عن بعضها بشروط حياتها، ونفسيتها التى تتحلى بخصائص ثقافتها القومية... ومن الواضح أن التكوين النفسى بحد ذاته، أو كما يقال أيضا (السمة القومية)، يظهر للمراقب وكأنه شىء عصى على اللمس، لكنه بقدر ما يتجلى فى أصالة ثقافة الأمة المشتركة، يمكننا أن نلمسه، ولا يمكننا أن نجهله».

ويؤكد ستالين هنا أن السمة القومية لا تترسخ نهائيًا لكنها تتطور باستمرار مع تطور حياة مجموعة بشرية، وإذا فقدت أمة أحد العوامل التى تحدد وجودها فهى، نظرياً وممارسة، لا تعود (أمة) وتتقهقر نحو أطوار أدنى فتصبح (قومية) أو حتى (مجموعة عرقية)[2].

وهكذا كان تتر القرم (أمة اشتراكية) قبل الحرب العالمية الثانية، ثم حرم عليهم إقليمهم وألحق بأوكرانيا، وتم نفيهم إلى آسيا الوسطى، وحرم عليهم حق

---

(١) المرجع السابق - ص٢٣٠

(٢) المرجع السابق، ص٢٤

الذى يجعلها تصنف فى هذا الباب الأدنى. فالتاليش الذين كان عددهم ١٠٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٢٦، كانوا قد ظهروا فى أول إحصاء سوفيتى عام ١٩٢٦، لكنهم اختفوا فى إحصاءات ١٩٥٩، ١٩٧٠، ١٩٧٩، وكذلك الأدجار، والخمشين، وشعوب منطقة جبال بامير.

وقد ظهر الأتراك فى إحصاء ١٩٢٦ لكنهم اختفوا فى إحصاء ١٩٥٩، ومثلما هو الحال قبل عام ١٩١٧ فى أوضاع مجموعات بشرية غير متماسكة، وذات وضعية غير محددة، كان من السهل بوجه خاص على السلطات السوفيتية أن تشطبها من هذا الإحصاء أو ذاك إن بدا لها ذلك مناسبا.

وفى الحقيقة، أن أى شعب من الشعوب المسلمة فى الاتحاد السوفيتى لا يبرز حتى اليوم جميع العوامل البنيوية للقومية، أو أن هذه العوامل تظل ملتبسة وقليلة النمو، وليس لمعظم القوميات المسلمة إقليم خاص بها محدد تماما، أو أنها تتشاطره مع قوميات أخرى، باستثناء الأدجار الذين لا وجود لهم بالضبط إلا بصفتهم مجرد مجموعة عرقية، والذين لم يكن ستالين يعرف ماذا يفعل بشأنهم عام ١٩١٣. لغاتهم التى يتحدثون بها فى معظم الوقت هى لغات شبه أدبية، وحديثة النشأة، كما أنه لا يمكن لأى من هذه القوميات أن تطالب باستقلال ذاتى ثقافى حقيقى.

التصنيف الإدارى للأمم المسلمة طبقا للمعيار الثانى:

(دستور ٧ أكتوبر ١٩٧٧)[١].

يستند السلم الثانى من التصنيف الإدارى للمجتمعات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى إلى تنظيمهم الإدارى وأقاليمهم، فإذا تم العمل على هذا النحو، فإن الأمر ينتهى بنا إلى ثلاث، إن لم نقل أربع درجات من الرتب، تختلف من حيث الاستقلال الذاتى المتناقص.

١- تتألف قمة السلم من ست جمهوريات اشتراكية سوفيتية (أو جمهوريات فيدرالية) إسلامية: أذربيجان، قازاخستان، أوزبكستان، طاجكستان، تركمانيا، وقرغيزيا، وهى مستقر أمم وفيها أكثر السكان عددا، وتقع فى أطراف حدود بلدان أجنبية أو عند البحر، وهذا الشرط الأخير لازم لوجود جمهورية اتحادية (فيدرالية).

---

(١) أحمد فؤاد متولى - مرجع سابق، ص٢٩

رأى بعض الأخصائيين السوفييت أنه يجب أن تجتاز المجموعة عتبة الثلاثمائة ألف نسمة كى تصل إلى مرتبة أمة.

وبوجه عام، فإن للقوميات إقليمها الخاص بها، ولكن بعضها محروم منه، مثل الأويغور والأكراد والأباظة وغيرها. كما أن أشد دلالة ظاهرة، وثابتة لقومية من القوميات هى أن يكون لديها لغة خاصة بها.

والقومية طبقا للنظرية السابقة، هى تكوين انتقالى غير مستقر، مؤهل للتطور كأمة، عندما يتجاوز عدد أفرادها ثلاثمائة ألف نسمة، أو يدمج بأمة أو قومية أخرى أشد منها حيوية، ولكن مجموعات بشرية مسلمة كثيرة لها لغات أدبية أحصيت كقوميات عام ١٩٢٦م، ومع ذلك لم تشكل رسميا غير مجموعات عرقية، مثل تاليش، أذربيجان الجنوبية والادجور، الجورجيين المسلمين، والكرباش، والنوغاى، وهم التتريون والبشكريون المسيحيون(١).

وفى إحصاء عام ١٩٧٩م، اعتبرت ست عشرة مجموعة بشرية مسلمة (قوميات) خمس منها أتراك:

الكوميك (٢٢٨,٠٠٠)، النوغاى (٦٦,٠٠٠)، الأويغور (٢١١,٠٠٠)، القراجاى (١٣١,٠٠٠)، البلقار (٦٦,٠٠٠) وثمانى مجموعات أيبرية - قوقازية: الدارغين (٢٨٧,٠٠٠)، اللاك (١٠٠,٠٠٠)، التاساران (٧٥,٠٠٠)، الإنجوش (١٨٦,٠٠٠)، الاديغة (١٠٩,٠٠٠)، الشركس (٤٦,٠٠٠)، الأباظة (٩١,٠٠٠)، اللازكين (٨١,٠٠٠)، ومجموعتان إيرانيتان: أكراد (١١٦,٠٠٠)، تات (٢٢,٠٠٠)، ومجموعة واحدة صينية (٥٢,٠٠٠)(٢).

ثالثا: المجموعات العرقية:

عد إحصاء عام ١٩٧٩ خمسا منها: أتراك (٩٣,٠٠٠)، إيرانيون (٣١,٠٠٠)، وثلاث مجموعات داغستانية: روتول (١٥,٠٠٠)، تساخور (١٤,٠٠٠)، أغول (١٢,٠٠٠).

ويمكن أن يصنف فى هذا الباب البلوش (١٩,٠٠٠فى إحصاء ١٩٧٩)، والأفغان (٤,٠٠٠ فى إحصاء ١٩٧٠، لكنهم لم يظهروا فى إحصاء ١٩٧٩)، إن هذه المجموعة ليست مهمة من الناحية الكمية، لكن ذلك ليس هو العامل الحاسم

---

(١) بليماك - وصية لينين - مرجع سابق، ص٦٤

(٢) أحمد فؤاد متولى - مرجع سابق، ص٢٥

أصبحت تحت الانتداب القيصرى، وإمارة فرغانة (استولى عليها الروس سنة ١٨٧٦)[١]، وإمارة خيوه (استولى عليها الروس عام ١٨٧٣)، ومقاطعات بامير ما وراء بحر الخزر (استولى عليها الروس عام ١٨٨١)، وبعد أن دمجت هذه الولايات فى العهد القيصرى قسمت إلى:

١- ولاية تركستان العامة، والتى تكونت من خمس ولايات (يدى صو - سيردريا - فيرغانة - سمرقند - زاكاسبى)

٢- إمارة خيوة وبخارى:

أما فى العهد الشيوعى، وبعد الاستيلاء على إمارات تركستان الثلاث: فرغانة - خيوة - بخارى بمعاونة بعض عملائهم التركستانيين، الذين قضى عليهم بمعرفة السلطات الشيوعية نفسها، بعد أن فقدوا فيهم الثقة لخيانتهم شعوبهم، ودينهم، ولما كانت كلمة تركستان تدل على موطن الترك وتوحدهم قومياً فأراد الروس الشيوعيون محو هذا الاسم فقسموا تركستان الغربية عام ١٩٢٣ بعد قضائهم على المقاومة الشعبية، التى قامت إبان الثورة البلشفية عام ١٩١٧.

وبعد استيلاء الروس على تلك الأراضى التى يسكنها التركستانيون أخذت تنتهج معهم سياسة تحقق أهدافها المتمثلة فى طمس الهوية التركية والإسلامية عن طريق الطرد والاختلاط مع نوعيات أخرى، لتقضى على الإسلام، والعبادات المتعلقة به، فكانوا يقومون بطرد شعوب وجماعات بأكملها إلى سيبيريا، وإحضار جماعات أخرى لقوميات أخرى لتحل محلها.

من هذا المنطلق، وطبقا للنظرية الستالينية للتوزيع السكانى، فإن الروس أرادوا تقسيم تركستان إلى جمهوريات ووحدات إدارية على أساس قبلى اثنولوجى، ونظرا لأن هذا المعيار غير دقيق فى حال تطبيقه، نظرا لإدخال الروس عناصر، وقوميات أخرى غريبة عن هذه الجماعات المسلمة، فأصبح التقسيم لا ينطبق على واقع الحال، ومثال ذلك أن جماعات القازاق، والقرغيز، ليست أغلبية من سكان هذه الجمهوريات[٢].

وبالتالى فإن التقسيم الروسى الشيوعى، عليه مآخذ كبيرة، لعدم دقته لأن هذا التقسيم الإدارى قد تم بناؤه على الفكر الستالينى لشعوب تركستان، وقد تكونت

---

(١) عبد الحليم عويس - مرجع سابق، ص١٦٠

(٢) محمد طه أبو العلا، مرجع سابق - ص٣٣

٢- يوجد فى السلم الثانى ثمانى جمهوريات إسلامية مستقلة ذاتيا: تتاريا، بشكيريا، داغستان، الشاشانية - الإنغوشية، الكبردية - البلقارية، تخجوان، أدجاريا، قراقابقستان يضاف إليها جمهوريتان مستقلتان ذاتيا جزء من سكانهما مسلمون: أبخازيا والأوسيت الشمالى سكانها مبدئيا أقل عددا من سكان الجمهوريات الاتحادية، وليس من الضرورى أن تكون لها حدود مشتركة مع بلد أجنبى.

٣- يتألف السلم الثالث من أربع مناطق إسلامية مستقلة ذاتيا: الأديغة، القراتشاى - الشركس، الجورنو - بدخشان، الناجورنو - قراباخ. وهى أصغر مساحة وأقل سكانا من مساحة وسكان الجمهوريات المستقلة ذاتيا(١).

٤- صنف آخر من الشعوب، وهى شعوب لا تتمتع بوحدة إدارية خاصة، لكنها مع ذلك تتمتع بشىء من الامتيازات الوطنية.

والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن نقف عند حقيقة مهمة وهى تفاوت أعداد المسلمين، واختلاف نسبتهم إلى مجموع السكان من إحصائية لأخرى، وهذا الاختلاف والتفاوت يعكس النظرة الظالمة للمسلمين، ومحاولة تغيير وتعتيم الحقائق المتصلة بهم وبالطبع فإن هذا التفاوت والتعتيم مقصود من الجهات الشيوعية، لأن سياسة الدول تبنى فى مجالاتها الفكرية، والاجتماعية، والثقافية، والتعليمية على عدد السكان ونسبة الخدمات الواجب توافرها للقوميات الأخرى(٢).

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام، والتى أوضحها الباحثون المتخصصون فى شىءون آسيا الوسطى أن الاتحاد السوفيتى القديم يتمطى فوق نطاق إسلامى هائل تنفجر شرايينه شرقا، وغربا، وشمالا، وجنوبا.

ومن ثم يجدر بنا الإشارة إلى أن بلاد التركستان، واجهت نوعين من التقسيم وإعادة رسم الخريطة الجغرافية لتلك البلاد، ففى العهد القيصرى قسم الروس تركستان الغربية بعد إستيلائهم عليها إلى عدة ولايات، منها ولاية (يدى صو) واستولى عليها الروس عام ١٨٦٤، وولاية سيردريا (استولى عليها الروس عام ١٨٦٥) وولاية سمرقند استولى عليها الروس عام ١٨٦٨، وإمارة بخارى التى

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩

(٢) عبد الحليم عويس - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق، ص١٦٠

من العناصر الجنسية المختلفة، وظلت هكذا قرونا طويلة، وهم من نسل الجماعات التى تتكلم اللغة الإيرانية، ومما تجدر الإشارة إليه أن جماعات الطاجيك، التى كانت على ضفاف نهر جيحون، وسيحون يتكلمون اللغة التركية، وقد اختلطت جماعات الطاجيك بجماعات الأوزبك، ولم تستطع السلطات الروسية الفصل بينهما تماما، ولهذا كان الأوزبك يكونون ٢٥٪ من سكان جمهورية طاجكستان، وعندما استولت جماعات الأوزبك بقيادة الشيبانى - وهو من أحفاد جنكيز خان - على الأراضى بين النهرين (Transoxiana) وأخذه المناطق الغنية بزراعتها بالقوة هربت جماعات الطاجيك إلى الجبال، وهى المناطق الفقيرة التى لا يطمع فيها الغزاة، وهى المناطق التى يستقرون فيها حاليا.

٢ - جمهورية قرغيزيا:

تكونت كجمهورية اتحادية عام ١٩٣٦م[١]، تسكن جماعات القرغيز مناطق الجبال، وأعنى بها جبال تيان شان، وهى أكبر القبائل المتنقلة فى الإقليم، وكان البعض من هذه الجماعات يسكن أعالى نهر ينسى (Yenesi) فى القرن ١٦م، ثم انضموا إلى جماعات القرغيز التى تسكن مرتفعات تيان شان.

٣ - جمهورية أوزبكستان[٢]:

أقيمت هذه الجمهورية عام ١٩٢٤، وهى جمهورية اتحادية، وجماعات الأوزبك تتكون من أكثر من ٦٠ فرعا، تشغل هذه الجماعة حالياً الأراضى بين النهرين، ووادى فرغانة فى الإقليم الجبلى، وقد استولت جماعات الأوزبك على هذه الأراضى فى القرن ١٦ بقيادة محمد الشيبانى، وهى من أغنى مناطق الزراعة والرعى فى إقليم نهرى جيحون وسيحون، وفى بداية القرن التاسع عشر كانت الأراضى ما بين النهرين (Transoxiana) مقسمة بين ثلاث خانيات: بخارى، وخيوه، وخوقند، ثم تمكن الروس من الاستيلاء عليها بالتوالى فى أعوام ١٨٥٥، ١٨٦٨، ١٨٧٣.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أراضى ما بين النهرين، ذات تاريخ قديم، يرجع إلى العصر الحجرى القديم أى منذ ٥٥,٠٠٠ عام، أو ٧٠,٠٠٠ عام، وكانت بها أقسام مهمة مثل بشكيريا، وخوارزم، وصغديانا فى الألف الأول قبل الميلاد وقد

---

(١) أحمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - مرجع سابق ص٧٣

(٢) محمود طه أبوالعلا - مرجع سابق - ص٣٤

بناء على ذلك ست جمهوريات مستقلة أو ذات حكم ذاتى أعضاؤه فى الاتحاد السوفيتى وهى[1].

١- جماعة الطاجيك	فى جمهورية طاجكستان.
٢- جماعة القرغيز	فى جمهورية فيرغرستان.
٣- جماعة الأوزبك	فى جمهورية أوزبكستان.
٤- جماعة القازاخ	فى جمهورية قازخستان.
٥- جماعة التركمان	فى جمهورية تركمنستان.
٦- جماعة الكاراكلبك	فى جمهورية الكاركلبك ذات الحكم الذاتى فى جمهورية أوزبكستان.

لقد أراد الروس تقسيم جمهورية تركستان الروسية إلى وحدات إدارية أو جمهوريات على أساس قبلى اثنولوجى، ومن ثم ظلت نظرية التقسيم والتصنيف لا تجد نجاحا على أرض الواقع.

ولو أن الروس أدخلوا إلى هذه الجماعات عناصر غريبة عنها، فلم تصبح الجماعات التركية اثنولوجيا أغلبية فى الوحدات الإدارية التى أطلق عليها أسماء هذه العناصر التركية، مثل أن القازاخ لا يكونون أغلبية السكان فى الجمهورية التى تحمل أسماءهم، وكذلك جماعات القرغيز ليست بين سكان هذه الجمهورية[2].

ثم ما هى العلاقة بين الشخصية القبلية الأثنولوجية لهذه الجمهوريات، وبين الشخصية السياسية لها؟

هذه جميعها تعد مآخذ على التقسيم الأثنولوجى الروسى لهذه الجماعات.

ولقد انقسم السكان فى إقليم نهرى جيحون، وسيحون إلى ست مجموعات أثنولوجية فى النصف الأول من القرن العشرين، وتكونت من هذه الوحدات جمهوريات اتحادية أى أعضاء فى الاتحاد السوفيتى سوف نستعرضها بإيجاز شديد:

١- جمهورية طاجكستان:

أقيمت كجمهورية اتحادية عام ١٩٢٩م[3]، وجماعات الطاجيك، خليط كبير

---

(١) المرجع السابق، ص٣٤

(٢) محمود طه أبوالعلا - مرجع سابق، ص٣٤

(٣) نصر الله الطرازى - تركستان ماضيها وحاضرها - مرجع سابق - ص٨

استقلال ذاتى فى نطاق جمهورية أوزبكستان عام ١٩٣٦ - كانت جماعات الكاركلبك تعيش فى المجرى الأدنى لنهر سيحون، ثم انتقلوا إلى مكانهم الحالى شمال غرب بحر أورال، ثم تمتد جنوبا لتضم إليها دلتا نهر جيحون، ثم تمتد جنوبا بين النهرين إلى عروض مدينة بخارى، وهم يشتغلون بالزراعة والرعى.

وهنا يجب الإشارة إلى أن سكان الجمهوريات التى كانت تمثل تقريبا نسبة ١٨٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفيتى المنهار، والذى كان يظهر عدد سكانه البالغ ٢٦٦ مليون نسمة، كقوة مهمة بجانب القوة السياسية، والاقتصادية والعسكرية، وبإحصاء عام ١٩٩٢، فإن سكان هذه الجمهوريات كان ٥٧ مليون نسمة، يمثل المسلمون ٧٤٪، وعددهم ٣،٤٢ مليون نسمة، بينما تمثل الأديان الأخرى، والشيوعيون نسبة ٢٦٪ بما يعادل ١٥ مليون نسمة [١]، مع العلم بأن المسلمين لا ينحصرون فقط فى هذه الجمهوريات الست المذكورة، وإنما هناك الكثير من المسلمين يعيشون فى جمهوريات ذات استقلال ذاتى، أو كونفدرالى مع جمهوريات أخرى أو اتحادات أخرى، وعلى رأسهم الاتحاد السوفيتى نفسه، ويمكننا أن نحصر منهم: التتار - الباش فورتلر - الجواشق - البالقر - الداغستانيين، وكانوا يواصلون حياتهم كأقليات مسلمة فى الدول المستقلة، ومنهم الأذريون، والقرغيريون، والقزخيون، والتاجيكيون، ويمكن فى ضوء ذلك كله أن نوضح أن عدد المسلمين لا يقل عن خمسة ملايين نسمة، مع ملاحظة، أن الخصوصيات العرقية لسكان جمهوريات آسيا الوسطى تظهر فى عدة أمور منها:

١- أن المجموعة العرقية الواحدة تعيش فى كل جمهورية بها حيث إن الأوزبك يعيشون فى أوزبكستان، والأذريون فى أذربيجان، والتركمانيون يعيشون فى تركستان، وهكذا.

٢- وأن سكان هذه الجمهوريات مسلمون، فيما عدا قزاخستان، وعندما يتم إدخال المسلمين الذين هم من أصل تركى تصل نسبة المسلمين فيها إلى ٧٥٪، وإن نسبة ٢٥٪ تتشكل من غير المسلمين، وخاصة الروس.

٣- رغم أن الروس يمثلون أقليات فى هذه الجمهوريات، إلا أنهم يحتلون قمة السلم الوظيفى فى كافة المجالات، فهم يشغلون أهم الوظائف فى الحقل الإدارى والعلمى، والفنى، والعسكرى، والتقنى، وفى الحياة العامة، وفى أجهزة الدولة المنوط بها اتخاذ القرار، وهم يعيشون حياة أفضل من أصحاب البلاد الأصليين،

---

(١) مرجع سابق، ص٥٢

استقبلت الغزاة الفاتحين مثل كورش الفارسى فى القرن السادس قبل الميلاد والاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد، والعرب فى القرن الثامن الميلادى.

٤ - جمهورية قازاخستان:

أقيمت كجمهورية اتحادية فى ٥ ديسمبر ١٩٣٦م[١]، فى القرنين ١٦، ١٧م كان القازاخ يكُون إمبراطورية للرعى المتنقل تمتد من شمال بحر قزوين غرباً حتى مرتفعات التاى، وزنجوريا شرقاً، ولكن القبائل القازاخية قد انفرط عقدها وضعف أمرها لإغارة القبائل الرعوية المتنقلة عليها، وخاصة قبائل الكالمك، و(Oyrat) وبعدها زحف الروس عليها خلال القرن الثامن عشر، واستولوا عليها خلال القرن ١٩، وتشتهر قازاخستان بثروتها البترولية، وبها أكثر من ٩٠ نوعا من المعادن، كما تشتهر أيضا بإنتاجها من القمح، ولهذا فاقتصادها مرتبط تماما بجمهورية روسيا الاتحادية لأنها تصدر إليها كل ما تحتاجه من مواد أولية.

٥ - جمهورية تركمانستان:

أقيمت هذه الجمهورية الاتحادية ١٣ مايو ١٩٢٥م[٢]، تتميز هذه الجمهورية فى أن كل جماعات التركمان فى الاتحاد السوفيتى يقيمون فى هذه الجمهورية، التى تحمل اسمهم. وهم يقيمون فى النطاق الصحراوى جنوب نهر جيحون، وقد هاجروا إلى منطقة خوارزم، وأنهار أترك وتيجن، ومقرب، وأخذت نسبة منهم تستقر فى هذه الواحات وتشتغل بالزراعة.

لقد خضعت جماعات التركمان للحكم الروسى فى القرن ١٩، ولم يمنحوا استقلالهم إلا بعد نضال ضد الروس، إذ اتفقوا مع أهل بخارى، وجماعات الأوزبك، وقاموا بمعركة ضد الروس.

إن هؤلاء التركمان يرتبطون بالأتراك العثمانيين أكثر من ارتباطهم بالعناصر التركية المجاورة، فهم أى التركمان طوال الرءوس أما العناصر التركية الأخرى فلا توجد بهم هذه الظاهرة ومن ثم تكون وحدة السلالة متوافرة بشكل ما بين التركمان والعثمانيين.

٦ - جمهورية الكاركلبك:

ذات الحكم الذاتى[٣]، وقد اعترفت الحكومة الروسية بها كجمهورية ذات

---

(١) أحمد فؤاد متولى - مرجع سابق - ص٥٩

(٢) محمود طه أبو العلا - مرجع سابق - ص٣٥

(٣) أحمد فؤاد متولى - مرجع سابق - ص٥١

تستبيح أعراض الشعوب، وأراضيهم، وخيراتهم، بل وتستبيح الشعوب نفسها، وتنكر عليها أبسط حقوقها الإنسانية.

والحديث عن معاناة مسلمى الصين عادة ما يكون حديثا يقطر دما، نتيجة المجازر التى قام بها ماوتسى تونخ، وعصابة الأربعة لإخضاع المسلمين للنظرية الشيوعية، وإن تاريخ هذه المأساة يعود إلى نهايات القرن الماضى[1].

ففى نهايات القرن الماضى بدأ الزحف القيصرى الروسى على الجمهوريات الإسلامية، فى وسط وشرق آسيا، وكان للصين نصيب فى الكعكة، فضمت إليها فى عام ١٨٨١ تركستان الشرقية، وسميت الجمهورية المسلمة باسم (سنكيانغ) أى المقاطعة الجديدة، ورغم أن المسلمين لم يستسلموا للاحتلال، وقاموا عدة مرات بثورات مكنتهم من الاستقلال، إلا أن الصين كانت فى كل مرة تعيد التركستان إلى حوزتها، وقد كانت كل محاولة للاستقلال تتبعها حملة إعدام، يروح ضحيتها آلاف المسلمين، ومع مجئ (ماو) إلى السلطة، وإعلان الثورة الثقافية، وجه بيانا فى ١١ أكتوبر ١٩٦٥، وهو موجه من الحرس الأحمر لمسلمى الصين، وهذا هو نصه[2]:

«ومن الآن فصاعدا لن يسمح لكم أن تضعوا قناعكم الدينى على وجوهكم سنطردكم، وندمركم. . .إلخ».

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥

(٢) عبد القادر طاش - مرجع سابق، ص٧٨

وإن كان من الملاحظ، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى أن أصبحت الجمهوريات المستقلة تستغنى عن الروس فى المناصب المهمة، وإسنادها لأهل البلاد، وإن شاء الله وبمرور المزيد من الوقت ستكون الوظائف، والمراكز المهمة من نصيب أصحاب البلد، ومن الشعب نفسه، الأمر الذى سيدفع الروس إلى الإحساس بعدم الرغبة فى وجودهم فى تلك الجمهوريات، وضرورة رجوعهم إلى بلدهم روسيا(١).

فلن ينسى المسلمون فى أذربيجان ما تم فى أهلهم حين دخلها الشيوعيون الجيش الأحمر، وأباحت لهم موسكو السلب، والنهب، والقتل) سياسة البلد المباح) والاستيلاء على منازلهم، وأراضيهم، وممتلكاتهم وإلحاقهم بالعمل فى معسكرات عمل زراعية جماعية (الكولخوزات) حيث كان يأتى الروس فى كل صباح ممتطين خيولهم، ويطرقون منازل المسلمين بشدة وعنف ليخرجوا للعمل فى أماكن المعسكرات الجماعية حيث يسوقونهم بالسياط كما تساق الماشية(٢).

ولا ينسى كذلك أهل القرم الشهيرة، وما حدث على يد الروس، إذ تقع شبه جزيرة القرم على شاطئ البحر الأسود، والتى لم تكن أسعد حظا من غيرها بل كانت ضحية للشيوعية، فتم إبادة شعبها، وطرد ما تبقى منه، والإستيلاء على كل خيراتها، وأملاك أهلها ثم تم ضم هذه البلاد لأوكرانيا كهدية من السلطات السوفيتية حتى قيل إن بعض الأسر التى فرت إلى الجبال، هربا من الإبادة، والتجويع والتشريد، كانت تبحث عن الحشائش، والعشب طعاما لأولادها، الذين كانوا يتساقطون جوعى.

وهناك الكثير من المهازل التى تعرض لها شعب تركستان الغربية، الذى لم يكن أحسن حظا من أهل تركستان الشرقية، تلك البلاد التى وقعت تحت الظلم الشيوعى الصينى، فكانت معاناة مسلمى تركستان الصينية، والمجازر التى تعرضوا لها، ومازالوا كذلك حتى اليوم، والأمر يستحق من الشعوب الإسلامية الوقوف بجانبها، وعمل ما يستطيعون للوقوف بجوار إخوانهم من مسلمى تركستان الشرقية(٣).

إن الاستعمار الشيوعى روسيًا كان أم صينيًا، ما هو إلا سياسة همجية استعمارية

---

(١) علاء الدين مصطفى المنوفى - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق - ص٦٠

(٢) المرجع السابق، ص٦٢

(٣) عبد القادر طاش - مرجع سابق، ص٧٧

الدين، والمشايخ، وكان الهدف من ذلك هو عملية تصفية جسدية للجيل المتعلم، والمثقف ثقافة دينية، من الممكن أن تؤثر فى الأجيال الناشئة[١].

ومن ثم، تم إلحاق الأطفال بعد عام ١٩١٨ بالمدارس الإلحادية عنوة، لكى ينشأ منهم جيل يخدم الشيوعية، كما أغلقوا المدارس الدينية، والمساجد، والجوامع، والمكتبات الدينية، وتم تحويلها إلى مسارح وملاهٍ، ونوادٍ، وإسطبلات للخيول، ولقد امتدت يد العبث، والتدمير إلى الكتب، والمخطوطات الإسلامية النادرة، فأحرقوها ليحرموا الشعب المسلم المتدين من الاطلاع على تراثه الدينى، بل لقد منعوا تدريس التاريخ الإسلامى، والجغرافيا بالمدارس، واكتفوا بتدريس الماركسية، وأفكارها، ومبادئها حتى لا تعلم الأجيال المتعاقبة تاريخ، وأمجاد الإسلام وحتى لا يعلموا المساحة الجغرافية التى اغتصبها هؤلاء الروس، ثم امتدت يد العبث بمقدرات هذه الشعوب، لتغيير هويتها وبتخطيط دقيق من خلال تغيير الأبجدية العربية إلى اللاتينية أولا، ثم إلى الروسية ثانيا وقد طبقت هذه الإجراءات على جميع الشعوب الإسلامية الخاضعة للحكم الشيوعى الملحد[٢].

ومن الخطوط الرئيسية لمعاداة الشيوعية للإسلام، أن هؤلاء الشيوعيين بدأوا حملتهم الدامية بالقضاء على اتجاهات الوحدة الإسلامية، والقومية فدمروا ما استطاعوا تدميره من الروابط التى تجمع بين المسلمين فى روسيا، فقد بدأوا بتمزيق أراضيهم إلى عدة جمهوريات، ووحدات إدارية، وبناء على ذلك يتم تقسيم السكان إلى عدد كبير من القوميات المزعومة.

وقد جرى قمع الفئات،والقوميات التى كانت نشطة فى إحياء شعورالوحدة الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى، ومثال ذلك: فئة تتر القرم - الشيشان - الباشقرد - وداغستان - وشمال القوقاز، وكانت هذه المنطقة هى التى تم فيها فتح أول إدارة دينية للمسلمين فى العهد القيصرى، ولكن ستالين أمر بإغلاقها، وصودرت أموالها، وأملاكها وتم التخلص من علمائها[٣].

ورغم أن روسيا الشيوعية قد زادت من قبضتها على البلاد الإسلامية، وتم تقسيمها وإعادة توزيع السكان فيها بفكر، وفلسفة شيوعية تخدم مصالحها، وتعمل على تفتيت دیا ر الإسلام، إلا أن السلطات الروسية كانت تزيد من قبضتها

---

(١) نصر الله الطرازى - مؤتمر المسلمين فى آسيا الوسطى والقوقاز - مرجع سابق، ص١٧

(٢) المرجع السابق، ص١٨

(٣) المرجع السابق، ص١٧

المبحث الثانى

الفكر الشيوعى وأثره فى إنشاء الإدارات الدينية

إذا كانت إحدى الثوابت التاريخية، بالنسبة لغالبية السكان المسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق، من أصول تركية تنتمى إلى الجنس القوقازى أو الجنس المغولى، فإن لغتهم تتعدد بتعدد التفرعات العرقية، ولقد عمد الروس إلى استغلال هذه الاختلافات، وتأكيدها وتغذيتها، ببعث فكرة القوميات الضعيفة بحجة المحافظة على التراث الخاص بكل قومية، وشجعوا الكيانات القومية الصغيرة على الانغلاق على نفسها، وإمعاناً فى هذا التفريق، قامت السلطات الروسية بطمس كل العوامل، والآثار التى تربط الجماعات الإسلامية بالإسلام، وأهمها هى اللغة العربية لغة القرآن الكريم، دستور ومرجع كل المسلمين على اختلاف قومياتهم، فاستبدلوا الحروف العربية التى كانت سائدة حتى عام ١٩٢٩ بحروف الكاريل الروسية بل جعلوا اللغة الروسية هى اللغة الرسمية[١] فى كل الأقاليم، وقامت بغلق المدارس، والمساجد ومحاربة العلماء الدينيين، وذلك لمحو الإسلام من صدور أهله، وإمعاناً من السلطات الروسية فى إذلال مسلمى وسط آسيا، أنهم كانوا يجبرونهم على التنصر، أو التشرد ورغم كل ذلك ظل الإسلام فى صدور المسلمين يتعلمونه جيلا بعد جيل حتى أذن الله سبحانه باستقلال هذه الشعوب المسلمة.

وليعلم كل ذى عقل لبيب أن الروس الشيوعيين، بادئ ذى بدء قد وضعوا فى خطتهم محاربة الأديان السماوية، ولاسيما الدين الإسلامى، فعلى ذلك أخذوا يضطهدون المسلمين الذين أصبحوا لا يملكون قوت يومهم، إلا عن طريق العمل فى المزارع الجماعية (الكولخوزات) ويعيشون على ما يصرف لهم بالكوبونات من الجمعيات التعاونية التى تشترط عدم انتماء الشخص لأى دين، حتى يصرف هذه المقررات المعيشية، ومن يثبت أنه من أهل التدين، لا يصرف له هذه المقررات، ويعامل معاملة (القولاق) وهى الطبقة التى لا حق لها فى أى خدمات معيشية أو غيرها، وعلى ذلك ساد الجوع، وأعدم وحبس، ونفى، كل من انتقد هذا الظلم الذى لا يتفق مع كرامة الإنسان، وحقه فى الحياة، ثم أخذوا يعدمون علماء

---

(١) الفيس برازا وسكاس - الثورة مستمرة فى المجتمع السوفيتى - مرجع سابق ص٢٧٣

الكريم، وكان هذا المنصب بمثابة وظيفة إدارية تخدم المصالح الشيوعية الروسية، ولا علاقة لها بالمسلمين أو مصالحهم أو خدماتهم.

فقد طلب المؤلف من فضيلة مفتى أوزبكستان إيضاح عدد الإدارات الدينية لمسلمى آسيا الوسطى فى العهد الشيوعى، والغرض منها، فقد أوضح فضيلته[1]:

«إن عدد الإدارات الدينية لمسلمى آسيا الوسطى، والقوقاز كان أربع إدارات لتغطى مساحة الاتحاد السوفيتى الشاسعة».

«إن الغرض من هذه الإدارات، من حيث الشكل هو إرضاء المسلمين، وإظهار روح التسامح من قبل السلطات السوفيتية لجميع مسلمى وسط آسيا، والقوقاز وذلك بمنحهم بعضا من الحريات الدينية، وذلك لكسب ثقة هؤلاء المسلمين وكافة الشعوب المسلمة للوقوف بجوار موسكو فى حربها ضد الألمان، مع العلم بأنها كانت حريات نظرية، وشكلية لا أساس لها على أرض الواقع.

ولكن من الناحية العملية، والموضوعية كانت تلك الإدارات تعمل لحساب الشيوعيين، ولذلك كان من يعين فى تلك الإدارات لابد وأن يكون من عملاء النظام الشيوعى، وهم موظفون رسميون فى الدولة ومحافظون على مراكزهم الوظيفية بإرضاء النظام الشيوعى وتنفيذ مخططاته».

ولذلك كان مسئولو تلك الوزارات هم أشد الناس عداوة للإسلام، وأشدهم تمسكا بالشيوعية، وأفكارها، ومبادئها، والدليل على أن تلك الإدارات كانت تعمل شكليا، ونظريا لمصلحة المسلمين وحماية لحرياتهم الدينية، وموضوعيا كانت تلك الإدارات تعمل فى خدمة الفكر الشيوعى ضد الإسلام والمسلمين، والأدلة على ذلك هى[2]:

١- كان يعمل بهذه الإدارات، ويسند إليهم رئاستها من هم فى خدمة النظام، والفكر الشيوعى، وبعيدون تماما عن الاسلام جملة وتفصيلا.

٢- إن هذه الإدارات لم تعارض السياسة الإلحادية التى تتخذها الأنظمة الشيوعية ضد الإسلام، من غلق المدارس أو هدم المساجد أو حرق المكتبات وغيرها.

---

(١) لقاء بين المؤلف والشيخ عبد الرشيد حاجى - مفتى جمهورية أوزبكستان ورئيس الإدارة الدينية بها فى احتفال معهد الدراسات الأسيوية بأسبوع الصداقة الأوزبكية فى ٢٢/٥/٢٠٠٢م.

(٢) المصدر السابق.

على المسلمين أحيانا، وتبسط يدها لصالح المسلمين أحيانا أخرى، طبقا لمعيار المصلحة الشخصية الروسية، والدليل الدامغ على ذلك أنه، وبعد أن حاصر الألمان الروس فى أوربا أثناء الحرب العالمية الثانية،وحاصروا لينجراد، وأصبحوا على مشارف موسكو، وقطعوا طريق الوصول إلى جمهوريات القوقاز، قد سارع الروس على أثر ذلك إلى نقل مصانعهم الضخمة التى تنتج الصناعات الثقيلة، والحربية إلى داخل أراضى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية السوفيتية، وبما أنهم كانوا فى حاجة إلى المزيد من الجنود للدفاع عن الاتحاد السوفيتى، المهدد من الألمان، وبذات الفكر الشيوعى الخبيث، قد منحوا مسلمى وسط آسيا، مزيدا من الحرية الدينية، فسمحوا لهم بفتح مدارس دينية، وبناء وفتح المساجد المغلقة، وفى عام ١٩٤٣ أعلنت السلطات الروسية فتح الإدارات الدينية لمسلمى وسط آسيا الوسطى، وكازاخستان، ثم تبعها باقى الإدارات الدينية بغرض خدمة المسلمين من وجهة النظر الشيوعية الخبيثة، وفى ضوء الاعتبارات السابقة يستطيع المؤلف أن يضع ملامح هذه الإدارات الدينية فى أربع نقاط.

وهذه الإدارات الدينية هى[١]:

١- **الإدارة الأولى:** الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى، وقازاقستان، ومقرها طشقند، أوزبكستان وأسست عام ١٩٤٣.

٢- **الإدارة الثانية:** الإدارة الدينية لمسلمي أوروبا، وسيبيريا، ومقرها (أوفا) بشغروستان، وأسست عام ١٩٤٣.

٣- **الإدارة الثالثة:** الإدارة الدينية لمسلمى شمال القوقاز، وداغستان، ومقرها (لويناكك) - داغستان وتشمل كلا من (الشركس - الشيشان - والأباظ) وأسست عام ١٩٤٤.

٤- **الإدارة الرابعة:** الإدارة الدينية لمسلمى ما وراء القوقاز، ومقرها (باكو، أذربيجان) وهى تدير شئون المسلمين من السنة، والشيعة فى كل من أذربيجان، جورجيا، أرمينيا، وأسست عام ١٩٦٨.

وكان رؤساء هذه الإدارات الدينية من دعاة الإسلام المستضعفين المضطرين لطاعة أوامر موسكو، ومن الشيوعيين الذين يعملون طواعية لمصلحة السلطات الشيوعية، وكان بعضهم لا يعرف اللغة العربية، ولا يحفظ سورة أو آية من القرآن

---

(١) المرجع السابق، ص١٨

عال إسلامى (معهد الإمام البخارى) فى طشقند الإسلامية على غرار جامعة الأزهر، والعديد من الجمعيات والمراكز الدينية التى تخدم الإسلام والمسلمين وإننا متطلعون إلى المزيد والمزيد مع كل يوم جديد[1].

ـ الإدارة الدينية تأسست فى عام ١٩٤٣، والجميع يعرفون أنه مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبعد أن هزم هتلر الاتحاد السوفيتى، وقع الشيوعيون وستالين فى حالة من الخوف الرهيب، ومن جراء ذلك بدأ السماح بإنشاء المنظمات الدينية، ومن بينها المنظمات الإسلامية، وهذا بتخطيط من الحكومة، ومن المسلمين شكلت الإدارة الدينية التى سميت فى ذلك الوقت (الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاقستان).

وهكذا بدأت الإدارة نشاطها، فقد كان الاضطهاد كبيراً قبل الحرب العالمية الثانية، وكان النشاط الدينى قبلها يتعرض لرقابة شديدة من الحكومة، وقد اهتمت الإدارة بإعادة فتح المساجد وترميمها، وتنظيم رحلات الحج، وفتحت المدارس الدينية فى بخارى، وكذلك اهتمت الإدارة باستيعاب مشاعر المسلمين، وخاصة الذين من خارج الاتحاد السوفيتى، فقد كان جيلنا الذى تخرج فى مدرسة ميرعرب فى بخارى يعلم هذا الأمر، وكان الشيوعيون يقولون هذا صراحة، إنه عندما تأتى الوفود إلى هنا، فإنهم يريدونهم أن يروا أنشطة دينية، وكذلك من يذهب للخارج، أن يقول إنه يوجد تسامح دينى، وأن المسلمين يؤدون شعائرهم الدينية، وإن عندهم مساجد، وعندهم كذا.. وعندهم كذا!! وقد نشأنا فى مناخ كان يربط كل نشاط دينى وغير دينى بالسياسة[2].

فمثلاً، كانت توجد نشرة تسمى: (مسلمو الشرق السوفيتى) وتوجه للقارئ خارج الاتحاد السوفيتى، وتكتب مقالاتها باللغة الروسية أولا، ثم كانت المقالات ترسل أولا إلى موسكو، فيضيفون كلماتهم، وإشاراتهم، ثم ترسل إلى الإدارة الدينية حيث تطبع باللغة الأوزبكية والعربية، واللغة الروسية.

وكذلك مدرسة ميرعرب الثانوية ببخارى، وبعد ذلك فى الثمانينيات معهد الإمام البخارى، كل هذا كان للإيحاء بأنه يوجد تسامح، وحرية دينية، وللقول بأنه توجد قوانين تسمح بالنشاط الدينى فى الاتحاد السوفيتى، كان كل شئ يوجه للدعاية الشيوعية وللمجتمع السوفيتى، وقد عشنا هذا العصر العصيب.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص١٤٨

٣- فى ظل هذه الإدارات تهدمت المساجد، والمقدسات الإسلامية، وبتعاون مسئولى هذه الإدارات مع النظام الشيوعى بإعطائهم معلومات عن الشخصية الدينية، ونشاطها حتى يتم القبض عليهم من قبل السلطات الشيوعية الإلحادية.

٤- إنه فى ظل هذه الإدارات تناقصت المساجد فى كل المناطق الإسلامية بصورة حادة، فأصبح هناك ٨٠ مسجدا فى أوزبكستان، ومسجد واحد فى تركمنستان، وهكذا فى باقى البلدان.

٥- فى ظل هذه الإدارات تم إغلاق المدارس الدينية، ومنع دخول الطلبة لتعليم اللغة العربية، والدين الإسلامى.

٦- فى ظل هذه الإدارات، تم تغيير الأبجدية العربية، إلى اللغة اللاتينية، ثم الروسية لطمس الهوية الإسلامية.

٧- لو أن هذه الإدارات كانت تعمل بالفعل لخدمة الإسلام، والمسلمين فإن عددها كان لا يكفى، ولا تغطى كل مساحة الاتحاد السوفيتى السابق، ولكنها كانت شكلية فقط.

٨- فى كل هذه الإدارات تم عمل ترجمات للقرآن الكريم باللغة الروسية وبها مغالطات متعددة كثيرة، وتم اعتمادها على ذلك.

٩- فى ظل هذه الإدارات كان لا يسمح بترميم أى مسجد، إلا بعد الموافقة من القيادة الحزبية فى موسكو، وهذا دليل على أن دور هذه الإدارات كان دوراً شكلياً لا عملياً[١].

وعلى ذلك، فإن هذه الإدارات كانت تعمل فى المقام الأول لخدمة النظام الشيوعى، بغض النظر عن مصلحة الإسلام والمسلمين، ورغم أن هذه الإدارات كانت تنادى بحرية الضمير، والتدين إلا أنها كانت تعمل عكس ذلك.

وعلى سبيل المثال، كان عدد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق نحو ٦٠ مليون مسلم، ورغم ذلك كانت المدارس الدينية لا تزيد على مدرستين فقط، واحدة فى بخارى، والأخرى فى طشقند، وكان عدد الطلبة لا يزيد على ٤٠ طالبا فى كل مدرسة.

ولكن وبفضل الله ثم الاستقلال، ومشيئته -سبحانه- فى إتمام حرية الإسلام، والمسلمين تم افتتاح ٢٠٠٠ مسجد فى أوزبكستان، وعشر مدارس دينية، ومعهد

---

(١) الشيخ عبد الرشيد حاجى - المصدر السابق.

الباب الثانى

الفصل الثالث

تغيير اللغة والأبجدية وفرض ثقافات الفكر الشيوعى

المبحث الأول : تغيير اللغة والأبجدية العربية للتخلص من التراث الإسلامى.

المبحث الثانى :الفكر الشيوعى وتزييف الوعى.

خلاصة القول:

يتضح من مضمون هذا الفصل أن الاتجاهات الفكرية للحزب الشيوعى هى استعمال الفكر الدينى، وطمسه، بالأيديولوجية الشيوعية، والتى تهدف إلى دمج العرقيات والقوميات فى قومية واحدة، وطمس هويتها لإعادة صياغتها فى إطار الفكر الشيوعى الإلحادى.

ولذا يعتقد المؤلف، أنها أخذت خطوات مهمة الأولى هو التغيير الديموغرافى للسكان، وإعادة التقسيم الإدارى للبلاد للسيطرة على جماعات المسلمين، وتحديد أقامتهم حتى يمكن التحكم فى سلوك الكل، وإخضاعه للسيطرة الإدارية، والفكرية كما تبدو أنها كانت تمثل أسلوبًا، وتوجيهات تربوية فى إلغاء المدارس الدينية الإسلامية، وفتح مدارس سوفيتية، تربى النشء على الفكر الاشتراكى الشيوعى.

ومن ثم تم توزيع المسلمين فى مساحة الاتحاد السوفيتى الشاسعة، ولم تجمعهم إدارة أو جهة دينية واحدة، ومن هذا المنطلق سارع النظام الشيوعى لإنشاء أربع إدارات دينية من الناحية الشكلية لتغطى أرجاء الاتحاد السوفيتى، ويكون مهمتها فى الظاهر مساعدة المسلمين فى تدبير شئون دينهم، وأحوالهم الشرعية، ومن الناحية الواقعية فكان النظام الشيوعى يقوم بتعيين عملائه لرئاسة هذه الإدارات، لتقوم بجمع المعلومات الاستخباراتية للسلطة المركزية فى موسكو عن أى نشاط دينى أو أى فكر أو زعيم دينى يكون له نشاط ملموس، يتم القبض عليه وإعدامه، ولذا فإن هذه الإدارات قد لعبت دورًا مهمًّا ومؤثرًا فى الضغط على الإسلام، والمسلمين وكانت وبالا على الإسلام، ففى عهد هذه الإدارات، تم هدم العديد من المساجد، وقتل العديد من الأئمة، والزعماء الدينيين، وإغلاق المدارس الدينية، ووقف أداء الشعائر الإسلامية.

التى تكتب أبجديتها بالعربية، كفيل بأن يحافظ على التراث الإسلامى، وتعمل على تعميق التمسك بالقيم الدينية، والمفاهيم الشرعية الإسلامية التى يجب انتشارها بين شعوب تلك المنطقة.

ولذا فقد عمدت السلطات الشيوعية إلى تنفيذ تعليمات لينين التى تنادى بعدم منح أى امتيازات لأى لغة لكى تكون اللغة الروسية هى اللغة الرسمية، وتكون هى لغة الثقافة التى تنادى بها الشيوعية، ولكى تنتشر فى أرجاء الاتحاد السوفيتى[1] بما فيها جمهوريات وسط آسيا الإسلامية باعتبارها جزءا من شعوب الاتحاد السوفيتى.

ولابد لجميع الشعوب من معرفة اللغة الروسية، ولذلك نودى بالثورة الثقافية الكبرى، التى ادُّعِىَ من ورائها خدمة الشعوب المحتلة، فى حين أن الحقيقة هى خدمة السياسة الشيوعية فى نشر مبادئها وأفكارها، وقطع كل السبل أمام أى لغة أو ثقافة أخرى من الممكن أن تؤثر على عقول الشعوب التركستانية، أو تربط هذه الشعوب بقوميتها أو تراثها أو هويتها.

ومن ثم نجد أن الفكر الشيوعى، هو فكر ماركسى لا دينى، تقوم كل مبادئه وسياساته على محاربة الأديان، فقد ابتدع النظام الشيوعى نظرية الثورة الثقافية التى تعتبر من أهم ركائزها محو الأمية، ولتطبيق ذلك، تم فرض الأبجدية اللاتينية، فى آيار سنة ١٩٣١[2]، على كل الشعوب، وبالطبع فإن هذه الخطوة تخدم تلك الشعوب والمناطق ظاهريا أو حسب ما تشيعه السلطات الروسية، ولكن هذه الحقيقة عارية تماما من الصحة لأن غرض السلطات السوفيتية فى المقام الأول هو إلغاء الأبجدية العربية لقطع الصلة بين تلك الشعوب، جذورها، وتاريخها، وتراثها الإسلامى، وعدم التواصل بينها وبين الشعوب الإسلامية الأخرى.

ثم وبعد تطبيق هذا المخطط، وفرض الأبجدية اللاتينية عام ١٩٣١ قامت السلطات الروسية فى ١١ شباط سنة ١٩٣٧ بإصدار مرسوم بإلغاء اللغة اللاتينية، والاستعاضة عنها بالروسية (الكريل) حتى تتمكن السلطات الشيوعية من التحكم فى التعليم ووضع الكتب المدرسية باللغة الروسية، لفرض تعاليمها للأجيال الصغيرة، ولقطع الصلة بينهم وبين تاريخهم الوطنى، ودينهم الإسلام،

---

(١) الفيس برازادسكاس - الثورة المستمرة فى المجتمع السوفيتى - موسكو - دار ناؤدكا سنة ١٩٨٩، ص٢٧٣

(٢) ولتر كولارز - شعوب الشرق الأقصى السوفيتى - ترجمة أ.ع.بعلبكى - بيروت- دار الثقافة، ص٧٩

الفصل الثالث

المبحث الأول

تغيير اللغة والأبجدية العربية للتخلص من التراث الإسلامى

من الأساليب المعروفة لدى دول الاستعمار بكل أشكالها هو تحطيم اللغة القومية أولا على مراحل حتى تسلب الهوية الثقافية للمجتمع الخاضع للاستعمار، وتبدو هذه الأساليب فى خطوات ثلاث: الأولى (محاولة مزج لغة المركز الاستعمارى بلغة المحيط المستعمر)، والثانية (سلب اللغة القومية من الخطاب الرسمى للإبقاء على لغة المستعمر المركزية)، والثالثة) فرض لغة المستعمر فى التعليم الرسمى وجعلها مدخلا للوظائف العامة بغرض الاستسلام للغة المستعمر، وتراجع اللغة القومية بين الأجيال المتعاقبة، وهو ما يريده المستعمر).

نجد أن السلطات الروسية قامت بتغيير الأبجدية العربية، التى كانت تستخدمها كل شعوب تركستان إلى الأبجدية اللاتينية، تمهيدا لتغييرها للأبجدية الروسية المعروفة باسم (الكاريل).

فبلاد تركستان وما وراء النهر، وشمال القوقاز تتكلم اللغة التركية، وهى لغة الأتراك الأصلية، والاسم يدل على المعنى، وتركستان هى بلاد الأتراك، وتستخدم لغتها التركية التى هى من لغات آلتاى أورال التورانية وهى لغة التصاقية، وأقدم لهجة للغة التركية هى لهجة كوك تورك، ولهجة الأويغور ولهاتين اللهجتين تفرعات لهجية كثيرة أهمها فرعان كبيران، وهما الفرع الخاقانى (اللغة التركية الشرقية) والفرع الأوغورى (اللغة التركية الغربية).

وأن الفرع الخاقانى أو الشرقى تفرع إلى لهجات مختلفة، كاللهجة الأويغورية (الجغطائية - الأوزبكية) واللهجات القازاقية، والقرغيزية، والتركمانية.

أما الفرع الأوغوزى «الغزى» أو الغربى، قد تفرع إلى عدة لهجات، الأذريق- الأناضولية فى الفولجا، والقوقاز، وآسيا الصغرى (الأناضول)[1].

ومن ثم يتبين أن اللغة التركية بلهجاتها المختلفة، هى اللغة المنتشرة والمستخدمة فى بلاد تركستان، وما وراء النهر، والقوقاز، وأن انتشار هذه اللغة

---

(١) نصر الله الطرازى - تعلم الأوزبكية - مرجع سابق، ص٢

السوفيتى كان يسير طبقا لمخطط وضعته السلطات الشيوعية، فبعد أن فرضت هذه اللغة واعتبارها اللغة الرسمية فى كل أراضى الاتحاد السوفيتى، أصبحت القرارات والإرشادات تصدر باللغة الروسية حتى فى الجمهوريات ذات اللغات القومية، ورغم أن دساتير الاتحاد السوفيتى المختلفة لم تنص على اعتبار اللغة الروسية لغة رسمية[١] فإن ذلك لم يثن حكام الشيوعية عن فرض اللغة الروسية، وتم إغلاق المدارس التى كانت تدرس اللغات القومية، بل ورفعت اللغات القومية من نظام التعليم، وأصبحت دور النشر، والطباعة تصدر باللغة الروسية عشرات الصحف، والمجلات المختلفة فى جمهوريات آسيا الوسطى، والقوقاز وفى المقابل تم تقليص إصدار الكتب باللغات الأخرى.

وكان من أهداف المخطط الشيوعى الرامى لفرض اللغة الروسية على سكان الجمهوريات الإسلامية هو ربط هؤلاء السكان غير الروس بالثقافة السوفيتية فى محاولة لاستيعابهم هذه اللغة، وقد تأثر بذلك بالفعل سكان المدن فى هذه الجمهوريات، وكذلك الأجيال الناشئة، وطلاب المدارس التى يجرى فيها التدريس باللغة الروسية.

يضاف إلى ذلك أن عملية التدريس أو الروسنة لكل مواطن غير روسى، كان يتم بأساليب غير شريفة فكل من هو غير روسى يعامل بمهانة، واحتقار خاصة إذا كان لا يعرف اللغة الروسية، أما إذا كان يعرف اللغة الروسية، فإنه يكتسب سمعة ووضعا اجتماعيًا مفضلا من جهة السلطات الشيوعية باعتباره أصبح له دور، ووضع اجتماعى أعلى لمعرفته اللغة الروسية[٢].

ويلاحظ المؤلف فى هذا الصدد من خلال مطالعة الكتب، والمراجع الروسية، أن هناك إغفالا تاما للقوميات الإسلامية، ولغتها إذ أن أى أطروحات تذكر فى هذه المؤتمرات أو البحوث التى تنشر نجدها تركز على أقليات أو قوميات أخرى مثل: البلغار، البولنديين، الغربيين، وهؤلاء الغربيون لا يشكلون سوى ٦٪، ومع ذلك نجد أن الكتاب، والباحثين يذكرونهم فيما يكتبون، ويغفلون الجمهوريات الإسلامية التى يغطيها التعتيم الإعلامى الكلى فى حين أن هذه الأقليات الأخرى تتمتع بمدارس تدرس لغتها القومية، فى حين أن الجمهوريات الإسلامية، والتى تشكل نسبة تزيد على ٢٥٪ من إجمالى عدد سكان الاتحاد السوفيتى السابق، لا

---

(١) الفيس برازارد سكاس - مرجع سابق، ص٢٧٤

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٦

وفرض مواد دراسية تتضمن أسس الماركسية واللينينية، ومؤلفات ستالين، وتاريخ الأدب الروسى السوفيتى، ومواد أخرى، كذلك تغذى الطلاب بشعور الكراهية ضد العالم غير الشيوعى، ويتم تغذية هذه الكراهية من خلال المواد التى تدرس لهؤلاء الطلبة كمضمون دراسى(١).

وقد كان تعليم اللغة الروسية والعمل على انتشارها من المسائل الكبرى التى اهتمت بها السلطات الشيوعية، واتخذت الحكومة فى سبيل ذلك اتخاذ إجراءات، وتدابير أخرى تخدم هذه الفكرة.

وحيث إن كل هذه الإجراءات، لم تعط النتائج المرجوة، فقد رأت الحكومة تنظيم مؤتمر عام لكل الجمهوريات من أجل تعليم اللغة الروسية، وقد انعقد هذا المؤتمر فى أكتوبر ١٩٧٥، بمدينة طشقند أوزبكستان(٢).

إلا أن، هذا المؤتمر لم يأت بالنتائج المرجوة، مما دعا السلطات السوفيتية لاتخاذ تدابير جديدة بالدعوة لعقد مؤتمر فى سمرقند، فى الفترة من ٢١-٢٣مايو سنة ١٩٨٣، تحت عنوان تعليم اللغة الروسية فى المؤسسات التعليمية بجمهورية أوزبكستان وتطوير عملية تعليم اللغة الروسية للشباب الذى يجند فى الجيش الروسى(٣).

ومن خلال إطلاع المؤلف على عنوانى المؤتمرين السابقين نلاحظ أن الحكومة الشيوعية كانت قلقة دوماً، على مستقبل نشر، وتعليم اللغة الروسية فى الأقاليم التى تحت سيطرتها، لاسيما أن هذه الأقطار، والأقاليم لها لغتها المحلية، وتراثها الثقافى التى حافظت عليهما مئات السنين، وإن كان هذا القلق موجهاً بصفة خاصة إلى المجتمعات الريفية التى تتعامل داخلياً، وفيما بينها بلغتها القومية ثم تفاجأ بضرورة استخدام اللغة الروسية التى لا يعلمون عنها شيئا، وقد أوضحت السلطات الروسية، ذلك حين قررت أن شباب القرى كانوا يواجهون مجتمعا روسيا حقيقيا لأو ل مرة عند دخولهم التجنيد، وكانوا يلعبون دورا سلبيا فى الجيش أكثر من الدور الإيجابى المنوط بهم، وذلك لأن محاولات الترويس والروسنة التى تفرض عليهم من أعلى كانت مصحوبة بالاحتقار والمذلة، والمهانة الأمر الذى كان يولد لدى هؤلاء الشباب رد فعل عكسى، وحيث إن تعليم اللغة الروسية فى المجتمع

---

(١) المرجع السابق، ص٨٠

(٢)، (٣) الفيس برازادسكاس - الثورة المستمرة فى المجتمع السوفيتى - موسكو - دار ناؤدكا سنة ١٩٨٩، ص٢٧٣

من كتب وروايات، ومقالات ومسرحيات وأفلام، وسائر ما تستخدم فيه الكلمة، واللغة لإحداث التأثير، والتغيير[1] بل لقد قدمت السلطات الشيوعية تفسيرات للقرآن الكريم باللغة الروسية تحمل الكثير من الأخطاء، والمغالطات المتعمدة لتشويه صورة الإسلام فى نفوس المسلمين.

وقد استخدمت اللغة مع الثقافة فى كل صورها، وأشكالها المعروفة، والمبتكرة لتخليق وجدان جديد من خلال تصور ذهنى لم يكن ليعهده من قبل عن الكون، والإنسان والحياة الاجتماعية، وهو استخدام حديث، وفريد يعمل على غسيل المخ للمواطن العادى، وهو أمر فريد، وليس له نظير فى التاريخ.

ولكن إرادة الله سبحانه علت كل تخطيط، وتدبير فقد جاء الحق، وزهق الباطل ففى عشية أو ضحاها انهار الاتحاد السوفيتى دون سابق إنذار لتظهر الدول الإسلامية فى وضع دستورى، وقانونى، واجتماعى، ودولى جديد فأصبحت تكون دول الكومنولث الإسلامى، وأصبحت كل دولة مستقلة ذات حرية، وسيادة فى فرض اللغة التى تريدها،

ولكن المؤسف فى الموضوع أن عملية التغيير من اللغة الروسية للغات القومية ستأخذ وقتا طويلا نسبيا، خاصة وأن كافة المطبوعات، والكتب، والرسائل التعليمية، وكل ما يتعلق بالدواوين، وإدارات الحكومة تستخدم اللغة الروسية، ومع ذلك أصبحت اللغات القومية تستخدم فى وسائل الإعلام والمدارس والجيش وخلافه.

ويلاحظ أنه رغم صعوبة اللغة الروسية، إلا أنها كانت تستهوى الشباب غير الروسيين فى المناطق الإسلامية للالتحاق بالمدارس التى تعلم الروسية لأنها تؤدى لاستكمال الدراسات العليا غير المتوفرة بالنسبة للغات القومية، وأن التعليم بالروسية كان يبدأ من الحضانة، ورياض الأطفال، بقصد زيادة استخدام اللغة الروسية فى الحياة الاجتماعية، والسياسية، ويتم تعليم الروسية فى ٩٥,٨٪ من دور الحضانة فى روسيا الاتحادية رغم وجود نسبة من غير الروس تمثل ١٩٪ من عدد السكان.

أما عن نسبة مدارس الحضانة التى تستخدم اللغات القومية فى الجمهوريات الإسلامية المستقلة فإنها تختلف من جمهورية إلى أخرى حسب وضعها الاجتماعى والثقافى وعدد السكان كجمهورية قازاخستان مثلا تستخدم الروسية

---

(١) أحمد رائف - شمس الإسلام العدد التجريبى الأول - مرجع سابق، ص٨٢

تتمتع بتدريس لغتها القومية، وذلك بمفهوم الشيوعية الماركسية الاستعمارية، والتى تعتبر أن اللغة القومية من الممكن أن تمثل ربطا جيدا بين الشعوب المقهورة، ومن الممكن كذلك أن تشكل هذه اللغات القومية جدار حماية لتلك الشعوب ضد الأفكار الماركسية الإلحادية[1].

وقد لعبت اللغة دورا حاسما فى المسألة الشيوعية، وفى فرض إحكام الستار الحديدى حول دول الاتحاد السوفيتى القديم ومنذ أن بدأوا بفرض اللغة الروسية على تلاميذ المدارس ومنع التعامل مع أى لغات قومية أخرى سواء بالتدريس أو التخاطب أو التعامل فيما بينهم، وبمرور الوقت وبعد جيل، ذهب السواد الأعظم ممن كانوا يعرفون اللغات القومية الأخرى اللهم إلا الذين حافظوا عليها وأخذوا يتداولونها ويتحدثون بها سرا فأصبحت تنتقل من جيل إلى جيل ميراثا وحفظا فى الصدور.

وحتى اللغات الأجنبية العالمية مثل: الإنجليزية، والفرنسية أو غيرها أصبحت لا تدرس فيالمدارس، وأصبح التدريس يقتصر على اللغة الروسية فقط، وبذلك أصبح أى بث إذاعى أو برنامج يوجه بأى لغة أخرى لسكان، ومناطق النفوذ السوفيتى لا تأثير، ولا معنى لها على الإطلاق لعدم معرفة أهلها بهذه اللغات.

وبذلك ضمنت السلطات الشيوعية تداول لغة واحدة لا يعرفون غيرها، وبذلك تحقق لتلك السلطات الأمن، والنظام، وسلامة العقيدة الشيوعية من أى فكر أجنبى دخيل، فلم يعد هناك من يعارضها أو يدحضها أو حتى يناقشها فى مفاهيم هذه العقيدة الشيوعية وأبعادها.

واللغة والثقافة الروسية الشيوعية الجديدة التى يفرض تعلمها على الناس كافة لا تحمل فى طياتها إلا ما يؤكد ويدعم الكفر، والإلحاد، ومحاربة الأديان، وينأى بالناس عن كل فكر سماوٍ وقد استخدمت الدولة فى سبيل تنفيذ تلك السياسة كل أساليب القهر والبطش، والإرهاب حتى استطاعت بالفعل أن تسيطر على كافة المواطنين الذين استسلموا استسلاما كاملا دون أية شروط نتيجة للقهر، والهوان الذى تفرضه السلطات الماركسية عليهم وعلى أسرهم.

وبالفعل استطاعت السلطات الشيوعية أن تنجح فى استخدام اللغة كمركب رئيسى للتفسيرات المتعددة ووجهات النظر الشارحة، والمؤكدة لدعائم النظرية الماركسية، وذلك من خلال صياغات متنوعة فى سائر مجالات الثقافة المختلفة

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٤

وكل ذلك يظهر جليا فى أن الشيوعية لم تكن مجرد احتلال للأرض بقدر ما هى احتلال للفكر والعقل وكان من وسائل تنفيذ ذلك هو تغيير اللغة القومية لكل بلد وتغيير الأبجدية إلى اللاتينية ثم الكريل الروسى.

وسوف يظهر ذلك استعراض موقف اللغة من التغيير الروسى للأبجدية العربية إلى الروسية فى كل دولة على حدة، وسوف نستعرضها تباعا[1].

أولاً: اللغة فى جمهورية أذربيجان:

هى اللغة الأذرية، وهى تنتمى إلى مجموعة أوغور التى هى من اللغات التركية وقد ازدهرت هذه اللغة ابتداء من القرن الرابع عشر حتى أوائل القرن العشرين، وبرز فيها الكثير من الأدباء، والفلاسفة، وقد انتشرت هذه اللغة على نطاق كبير فغطت شمال إيران، والقوقاز، وشرق الأناضول، وشمال العراق.

وفى سنة ١٩٢٨، ألغيت الأبجدية العربية، ثم تحولت إلى اللاتينية ثم الروسية ثم عادت بعد الاستقلال إلى الحروف اللاتينية مثل حروف لغة تركيا حاليا.

ثانيًا: اللغة فى جمهورية أوزبكستان لها لهجتان:

اللهجة الأوزبكية الوسطى: وهى تستعمل فى طشقند - سمرقند - بخارى - أندبجان - وخوقند، وقرش - جيزاق - قتة - قورغان.

اللهجة الشمالية: فى المناطق الغربية من قازقستان مثل جيمكنت - سيرديريا، وفى المناطق الجنوبية من قاشقداريا.

وكانت جميع شعوب منطقة وسط آسيا (تركستان) وحتى تتار الفولجا تستخدم اللغة الجغتائية (الأوزبكية القديمة)، ثم استحدثت اللغة الأوزبكية من الجغتائية وحلت الحروف اللاتينية محل الحروف العربية عام ١٩٢٧، ثم فرضت الأبجدية الروسية (الكريل) عام ١٩٤٠م[2]، ثم عادت بعد الاستقلال للأبجدية اللاتينية.

ثالثا: اللغة فى قازاقستان:

تنتمى إلى مجموعة النوغائية القبجاقية وهى إحدى اللغات التركية ثم حولت حروفها إلى اللاتينية ثم إلى الروسية (الكريل) عام ١٩٤٠ وتجرى الدراسات لتحويلها إلى الأبجدية اللاتينية.

---

(١) أحمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - مرجع سابق - ص٤٢

(٢) المرجع السابق، ص٤٤

فى ٨٦,٤٪ من عدد مدارس الحضانة فى حين أن جمهورية أذربيجان تستخدم الروسية فى ١٧,٥٪ من عدد مدارس الحضانة فى البلاد.

ومن ثم تتبين الاستراتيجية السوفيتية فى طمس العقيدة الإسلامية فى شخصية المجتمع التركستانى، والإحصاء التالى يوضح نسبة تعليم اللغة الروسية واللغات الأخرى عند الأطفال(١).

تعليم اللغة الروسية للأطفال غير الروس(٢):

اسم الدولة	اللغة الروسية	اللغة الأخرى	الروسية واللغة الأخرى
كومنولث الدول المستقلة	٪ ٧٤	٪ ٢٣,٢	٪ ٢,٨
روسيا	٪ ٩٥,٨	٪ ٢,٨	٪ ١,٤
أوزبكستان	٪ ٢٧,٧٧	٪ ٦٨,١	٪ ٤,٢
قازاقستان	٪ ٨٦,٤	٪ ١١,٩	٪ ١,٧
أذربيجان	٪ ١٧,٥	٪ ٦٣	٪ ١٩,٥
قيرغيستان	٪ ٦١,٣	٪ ٣٦,٥	٪ ٢,٢
تركمانستان	٪ ٣٩,٧	٪ ٥٠	٪ ١,٣

وقد ثبت بالحقيقة، أن الشيوعية بأفكارها، ومبادئها هى قبل كل شئ استعمار واحتلال فكرى ومادى، وخطر يذيب شخصية الشعوب، والأمم والدليل على ذلك إذا ما نظرنا للاستعمار البريطانى لمصر نجد أنه لم يكن استعمارا قد سبقته أفكاره كالشيوعية ولم يبن على أفكار، ونظريات، وإنما كان استعمارا ماديا قام على القوة، والغلبة والتفوق فى العتاد، والعدة، ولهذا كافحه الشعب المصرى بذات السلاح، وهو القوة وقد سجلت المقاومة أعظم صفحات الكفاح(٣).

ولكن الشيوعيين، يتركز خطرهم على كيان الأمة الداخلى لأنهم لا يعيرون اهتماما بمبادئ وأفكار تلك الأمم بقدر ما يستوحون اتجاهاتهم، وأفكارهم من مبادئ الماركسية الشيوعية الملحدة.

---

(١) أحمد فؤاد متولى - هويدا محمد فهمى - الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا. القوقاز - مرجع سابق، ص٢٠

(١) المرجع السابق، ص٢١

(٢) عبد المنعم النمر - مرجع سابق، ص١١٧

خلال الأعمال الفنية والأدبية، ومن خلال وسائل الإعلام المقروءة، والمرئية والمسموعة[1].

وكذلك فرضت هذه اللغة الروسية على المناهج الدراسية التى تشتمل على الأفكار الماركسية اللادينية.

وتحاول جذب الأطفال، والشباب لتعليم هذه اللغة حتى تندثر لغتهم القومية بعد جيل أو أكثر.

---

(١) المرجع السابق، ص٨٥

رابعًا: اللغة فى تركمنستان[1]:

تنتمى إلى مجموعة الأوغوز وهى إحدى اللغات التركية، وقد ظهرت فى القرن الثامن عشر لغة أدبية جديدة بين التركمانيين، والجغتائيين ثم نشأت لغة أدبية جديدة خلال العشرينيات من هذا القرن مستوحاة من لهجتى (تقة - يومود).

وقد كتبت اللغة التركمانية بالحروف العربية ثم تحولت الى الحروف اللاتينية ثم الكريلية عام ١٩٣٩.

خامسًا: اللغة فى قيرغيزستان:

تعتبر اللغة القيرغيزية، إحدى اللغات التركية، وهى قريبة جدا من اللغة القازاقية وتم تحويل حروفها من العربية الى اللاتينية ثم الكيريلية.

سادسًا: اللغة فى طاجكستان[2]:

هى اللغة التاجيكية، وهى فارسية الأصل استبدلت حروفها باللاتينية ثم الكريلية عام ١٩٣٩، دخلت بعض الألفاظ الروسية.

وعلى ذلك نجد أن السلطات الشيوعية قد بدأت باستعمار فكرى، وعقلى كان من وسائله إلغاء الأبجدية العربية، واللغات القومية وإدخال أبجدية حديثة لقطع الصلة بين الشعوب، وتراثها، وقيمها التى هى عبارة عن موروث حضارى كبير، فقامت بتغيير الحروف، وحرق الكتب والمخطوطات وإبادتها لمنع التواصل الفكرى، والوجدانى بين الشعوب الإسلامية بوسط آسيا، بل لقطع الصلة بينها، وبين شعوب العالم أجمع حيث إن اللغة الروسية التى فرضتها السلطات الشيوعية ليست لغة عالمية منتشرة، ولكنها لغة دولة، ومن ثم فإن أى اتصال فكرى وأعلامى مباشر أو غير مباشر، من أى دولة أخرى لتلك البلدان لن يكون له أدنى تأثير على الشعوب التى لا تعرف إلا الروسية، ولذا فإن المخطط الماركسى، كان يهدف فى المقام الأول إلى طمس الهوية الإسلامية لتلك الشعوب من خلال إلغاء اللغة الخاصة بهم والتى هى سبيل اتصالهم، وفرض لغة رسمية للتعامل، والتعليم، والثقافة حتى يجبروا الشعوب على التعامل بها، والتعايش معها ومع أفكارها من

---

(١) دار الدعوة - مرجع سابق، ص٨٣

(٢) المرجع السابق، ص٨٥

وهذه العملية هى أخطر المراحل التى أقدم عليها النظام الشيوعى، وقد بدأ تنفيذ هذه العملية بإنكار الدين، ومحاربته، والإعلان عن أن ثورة أكتوبر ١٩١٧ البولشفية قد انتصرت على الله -حاشا لله-، وأنزلته سبحانه وتعالى جل شأنه من فوق عرشه، ثم صنعوا للناس أفكارا إلحادية، وكأنها إله يعبد، فلابد أن يطيع الجميع مبادئ الفكر الشيوعى الماركسى الإلحادى، ولا يمكن لأى شخص معارضته، فلابد من إطاعته طوعا أو كرها وإلا فالمصير المحتوم.

وأدرك المسلمون بحسهم الإيمانى أنهم هم المستهدفون من هذه الثورة فى المقام الأول، وأن عليهم التسليم المطلق للنظم الشيوعية، ليس فقط فى نظمها المادية من قوانين، ولوائح ولكن أيضا عليهم الطاعة فى الفكر العقائدى للنظام الماركسى الإلحادى، وترك عقائدهم، والتخلى عن إيمانهم، وإسلامهم.

وهذا ما دفع المسلمين فى تركستان، والقوقاز إلى الصدام مع هذا الفكر العقائدى الإلحادى الجديد، وأصبحت المواجهة حامية، ودامية بين أصحاب الفكر العقائدى الشيوعى، والفكر العقائدى الإسلامى، ومن هنا ظهرت المقاومة فى أول الأمر من رجال الدين، والعلم، والثقافة ضد الشيوعية وكانت مقاومة شديدة وشرسة، ولكن انتهت بنهاية مؤلمة لمسلمى آسيا الوسطى.

ولكن هذا الأمر، وهذه القسوة لم تقض على الإسلام فى نفوس أبنائه، وأصبح القرآن محفوظاً فى الصدور بعد أن أحرقت المكتبات، وأعدم مئات الآلاف من أمهات الكتب، وأغلقت المساجد، ومنعت إقامة الشعائر الدينية، وغيرها، اللهم إلا فى سراديب تحت الأرض أو فى أعلى الجبال أو من وراء حجب حتى لا يتعرضوا للسجن أو القتل أو التشريد.

وإمعانا فى أعمال القهر، والظلم، والاستبداد فقد صودرت الأراضى، والمواشى، وأدوات الزراعة والصناعة، بل وأصبح السكان فى كل قرية يعملون بنظام السخرة لدى السلطات الشيوعية فى معسكرات عمل جماعية تسمى «الكولخوزات» وهم يعملون مقابل طعامهم، ويساقون للعمل بالسياط كالعبيد بل كانوا كذلك، بل أرغموا على العمل فى حظائر الخنازير، والإقامة بها، والعمل كذلك فى مصانع الخمور، ورغم أن كل ذلك مخالف لتعاليم الإسلام، فالويل، وكل الويل لمن يظهر تبرماً أو تأففاً أو ضيقاً من هذه الأعمال، وكان ذلك كله يتم بموجب تخطيط شيوعى محكم المقصود منه كيفية القضاء على الإسلام فى نفوس شعب قد شارك بوجدانه، وتراثه، وتقاليده، فى تكوين الثقافة الإسلامية،

المبحث الثانى

أساليب الفكر الشيوعى وتزييف الوعى

مقدمة:

يختلف وضع السياسات الإعلامية فى المجتمعات، تبعا للأيديولوجيات التى تنتهجها، والتى تخدم مصالحها فبالنسبة للشيوعية، وتطبيق النظرية الماركسية، نجد أن وسائل الإعلام فى المجتمعات الشيوعية كانت تمثل جزءا لا يتجزأ من جهاز الدولة الشيوعى، الذى يبرز سياسة الحزب الوحيد الحاكم، والمسيطر، وتركز وظيفتها الأساسية فى زيادة وحدة الفكر، والوعى بين أعضاء المجتمع طبقا لمبادئ الماركسية، وتفسير الأحداث على ضوء تلك المبادئ[١].

ولذا فقد اهتم الشيوعيون أثناء فترة حكمهم باستحداث، واستخدام الأساليب الثقافية المختلفة فى محاولة منهم لغرس المفاهيم الجديدة لدولة العمال، والفلاحين، والتى حوت فى طياتها الكثير من الدول والقوميات.

وإذا كانت الثقافة هى ضرب من اختلاط المعرفة، والسلوك فينمط إنسانى بعينه له أدبياته، وآفاقه، وخصوصياته، وهى كذلك سمة من سمات الحضارة، فإن لكل حضارة ثقافاتها المميزة بخصائص مختارة، وقد تلتقى تلك الحضارة مع حضارة أخرى تتجاذب أو تتنافر طبقا لتلاقى خصائصها أو اختلافها.

وإذا نظرنا إلى فترة الحكم الشيوعى فى بلدان الاتحاد السوفيتى القديم، وجدنا أن هذه الفترة سببت شرخا فى الحضارة المسيحية الغربية، وخلفت تصدعا اشتركت فى صنعه البروتستانتية اليهودية الدولية، ضد الأصولية الدينية القديمة المتمثلة فى الإسلام والأرثوذكسية[٢].

وبدأت مرحلة استحداث الأساليب والأفكار الشيوعية بعملية التحليل والتركيب، وفكرة هذه العملية هى التفكيك العقلى أو الذهنى للكل إلى أجزاء ثم توحيد هذه الأجزاء إلى كل جديد بفكر، ومعتقد جديد[٣].

---

(١) السيد حنفى عوض - السياسة والمجتمع - الإسكندرية - مطبعة خضر - سنة ٢٠٠٠ ص٣٠٠

(٢) فولكوف - ما هى معجم وجيز للمصطلحات الاجتماعية والسياسية - موسكو دار التقدم سنة ١٩٩٨، ص٧١

(٣) أحمد رائف - مستقبل الإسلام فى روسيا وما وراء النهر مرجع سابق، ص٧٨

والدعاية ضده، وأصبح ذلك مادة فى القانون السوفيتى «المادة ١٢٢ من القانون الجنائى السوفيتى» تحرم هذه المادة تلقين الأطفال، والأحداث العقائد الدينية فى المدارس الحكومية، والخاصة، والمعاهد التعليمية المختلفة، بينما يتضمن الدستور السوفيتى فى مادة أخرى منه «إن حرية إقامة الشعائر الدينية وحرية الدعوة اللادينية مكفولة لجميع المواطنين».

بل إن هناك معهداً مخصصاً لنشر الإلحاد، ومحاربة الدين أقيم خصيصاً فى الاتحاد السوفيتى واسمه الرسمى «معهد الإلحاد بأكاديمية العلوم الاجتماعية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى(١).

٢- القتل والإبادة، والتشريد للمسلمين خاصة العلماء الدينيين، والمثقفين، والحرفيين، والمهنيين، ووضع العقبات، واستخدام الأساليب الوحشية للحيلولة بينهم وبين ممارسة أعمالهم، ومهنهم، وأنشطتهم الدينية.

٣- دعم نشر الكتب، والنشرات الموجهة ضد الإسلام، والمسلمين، وتدريب الملحدين من مختلف التخصصات لارتياد المراكز، والمناصب المختلفة (عمالاً - حرفيين - وأساتذة جامعات - مديرى مصالح وإدارات) ليكون عليهم مسئولية الدعاية ضد الإسلام، وتكفير المسلمين.

٤- الإخلال بالتراكيب السكانية من خلال مزج، وخلط القوميات المختلفة، وذلك بإحضار قوميات أخرى، وتوطينها فى الأماكن والتجمعات الإسلامية بغرض تفتيت الهوية الإسلامية، وعدم التركيز على لغة واحدة أو عادات واحدة لتقليل تمسك المسلمين بتراثهم وعاداتهم.

٥- حرق المكتبات التى تحوى الكتب الإسلامية، ومصادرة المطابع التى تطبع مثل هذه الكتب، والاستيلاء على الجامعات والمعاهد الإسلامية وتحويلها إلى مراكز خدمة شيوعية.

٦- منع الفرائض الإسلامية مثل الزكاة بحجة أن هذا يزيد من قوة المسلمين، وعدم احتياجهم للدولة، وأن الصيام يعرقل العمل - والصلاة تعطل العمل، ولا تجدى ومن ثم يجب منع كل ذلك بالقوة.

٧- توجيه المناهج الدراسية إلى الإلحاد إذ تتضمن مناهج المدارس، والمعاهد والجامعات دروساً عن الإلحاد، وحب الشيوعية، وكراهية كل الأنظمة غير

---

(١) عبد المنعم النمر - مرجع سابق، ص١٢٩